أَيْدٍ مُلَطّخَة بالـدَّم

طبعة أولى

١٩٩٥

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

سلسلة «الوداع»

٨

أَيْدٍ مُلَطَّخَة بالـدَّم

ماريّا ڤيزوڤيسكا

عـرّبهـا

أديب مصلح

ظهر هذا الكتاب بالفرنسيّة تحت عنوان

DU SANG SUR LES MAINS
MARIA WINOWSKA
Éditions Saint – Paul
Paris – Fribourg – 1971

إهداء

الى من تشرع لي بسمته الساحرة
آفاق عالم البراءة المدهش
الى حفيدي الغالي هنري.

أ. م.

الفهرس

مقدّمة ٧
أيدٍ ملطّخة بالدّم ١٣
تشوما الطاعون ٥٧
الأيقونة الخالدة ٧٩
المسيح بالريدنكوت ٩٣
قدّاسٌ بلا كاهن ١٠٥
أنييـــس ١١٧
كـــاترين ١٣١
مائدة الخطأة ١٤٥
كحولٌ وفطائر ١٥٩
من طرائف "مهمّة إِقرار الأَمن" ١٧٣
رسالة الميلاد ١٨٣
إيقونة "روبليـــف" ١٩٧
الفهرس ٢٢٣

مقدّمة

« "في ضمير كلّ إنسانٍ قد توهَّجت، ولو مرَّةً واحدةً، ولو على نحوٍ خاطف، روعةُ النعمة الإلهيّة، وموازينُ الحقّ والخير كما يراها الله؛ وقلب كلّ إنسانٍ قد هفا، يومًا، إلى حياةٍ روحيّة ملتحمة بالله، مسهمةٍ في عمليّة الخلاص. تلك الرؤية وذلك الصبوّ يظلاّن غافيين في الصدور، بانتظار الصدمة الإلهيَّة التي تبعثهما من سباتهما »

(جورج برنانوس)

ما هذه المجموعة القصصيّة إلاّ امتدادٌ لسالفتها: "يدُ الله". وهذه، على غرار تلك، باقةٌ من الأَحداث الواقعيّة الثابتة، ومن الشهادات الصادقة الحيّة، انتقتها "ماريّا ڤينوڤسكا" من مئات الشهادات والأَحداث التي استقتها مباشرةً من أَبطالها وشهودها، وأَثبتت، في أَمانة، دقائقَها، على مدى بضعة عقودٍ. وقد تريّثت في نشر بعضها، خشيةً منها على أَبطالها، كما أنّها اضطرّت إلى تمويه معالم بعضها الآخر، حرصًا عليهم من نقمةٍ أو انتقامٍ، فكانت النقمة من نصيبها،

وريشت إليها سهام الانتقام، فتعرَّضت لمحاولات اغتيالٍ متكرّرة، خلّفت لديها آثارًا باقيةً وآلامًا مبرّحةً تضني خريف عمرها.

إنّ استقراءً متمعّنًا لهذه الأَحداث المدهشة يظهر أَنّ السلك الذي تنتظم فيه جميعها، انتظام حبَّات عقدٍ متعدّدة الألوان، بل الطابع المشترك الذي يسبغ عليها ألَقًا متجانسًا، هو تجلّي **رحمة الله اللامتناهية**، التي تفيض حيث تكثر الخطيئة، والتي تنصب أَشراكها في كلّ مكانٍ، ناشدةً إيقاظ كوامن البراءة في النفوس، ومُحْكِمةً تدابير عنايتها بحيث تبدو، غالبًا، وكأنّها صُدَفٌ موغلةٌ في الغرابة. إنّها تترصّد الخطأة، كي توقعهم في حبال حنانها، حالما تخفق قلوبهم بخلجة شوقٍ إلى الله، أو تهفو نفوسهم بحسرة ندمٍ على ما جنت أَيديهم؛ تقف عند أبواب النفوس اليائسة التي يعصف بها فَرَق العزلة والقنوط، وتقرعها برفقٍ متحيّنةً إيماءة ترحيبٍ، أو حركة استسلامٍ، حتّى تداهم المكان بوابل عطفها؛ وحينئذٍ، في أَقصى اليأس، يولد، من جديدٍ الأَمل الذي يقود إلى النجوم.

أَقسى ما يلمّ بالإنسان من ألمٍ هو تغرّبه عن الله، ففي هذا الانسلاخ عن الخالق موت المخلوق، ولا شفاء من غربة الروح هذه سوى حضور الله الغامر؛ ولذلك تجسّد الله كي يشيع حضوره في ما بيننا ويخلّده؛ وكان الصليب قمّة جنون الحبّ الإلهيّ، جنونٍ لم يكن بوسع أكثر مطامح البشر جموحًا تخيّله، جنونٍ يبدو إزاءه كلّ جنونٍ شاحبًا خجولاً. وبتجسّده وبصلبه تورّط يسوع تورّطًا تامًّا في المغامرة البشريّة، ومزج حضوره بنسيج التاريخ الإنسانيّ.

لقد صُلب ابن الله وابن البشر لكي يخلّص كلّ إنسان، فبات ثمن كلّ إنسان دم الله نفسه، ولا عجب، بالتالي، إن غدا الله لنا، لكلٍّ منّا، أَبًا وأمًّا وأَخًا وصديقًا، أكثر ممّا يمكن أَن يكون أَيّ مخلوق. ولا غرابة في أَن يدأب على تحطيم كلّ ما فينا يضعفنا ويعيقنا، كي نحبّه بكلّ ذواتنا. وعندما ندرك حبّ الله لنا، تبدو الأَبديّة كلّها غير كافيةٍ كي نُعبِّر له تعبيرًا لائقًا عن شكرنا وامتناننا.

كم نحن نُعْرِض عن الله! ولكنّ الله، أَبدًا، لا يُعرض عنّا. وعندما نتمادى في الغيّ والتيه، ونستأهل عدل الآب الرهيب، يبادر الابن المتأنّس فيُريه آثار صلبه، وسرعان ما تتغلّب الرحمة على العدل!

رحمة الله هذه لا شواطئ لبحر جودها، ولا حدّ لمجانيّتها، ولا معيار لموازينها، ولا دليل لمسالكها ودروبها. تتسرّب إلى أَعماق النفوس، فتجتثّ جذورها الغارقة في الحمأة، كي تغرسها، من جديد، في عين الشمس المطهّرة المنعشة. وهي، في سبيل ذلك، قد تتذرّع بحصاة تدمّر بها صرحًا من الضلال العنيد، وبكلمةٍ تشرع بها هوّةً سحيقةً من التساؤلات المؤدّية إلى الخلاص، وبلفتةٍ تفجّر سيلاً من التوق إلى الذرى المشرقة؛ وبهناتٍ تافهةٍ تُحدث انقلاباتٍ نفسيّةً جوهريّةً؛ وهي تستخدم أَحيانًا بسطاءَ طيّبي النوايا، أو تائبين عن ماضٍ حافلٍ بالخزي، كوسطاء وشركاء في مهمّة الخلاص والفداء؛ بل هي لا تتحرّج من استخدام "أَيدٍ ملطّخة بالدم" كي، تمنح بها الغفران، وتوفّر العون والانعتاق.

أوَ لم يكن اللصّ المصلوب التائب هو أوّل من اصطحبه الـــربّ إلى ملكوته؟ أَوَ لم تكن المجدليّة هي أولى من بُلّغت بشرى القيامة، وانتُدبت للتبشير بها، وبثّ رسالتها؟ أَوَ لم يؤكّد الربّ نفسه أَنّ في ملكوته مكانًا أثيرًا للخطأة التائبين، لصوصًا كانوا أم زواني، أم عشّارين، إذ حسبُهم حبٌّ صادقٌ يقلب كيانهم كي يستحقُّوا الاتّكاء على صدر الربّ؟

إنّ طريق دمشق ما انفكّ سالكًا، يشهد باطّرادٍ تحـــوّل مختـــاري الهداية الإلهيّة، الذين يصْعقهم نورها، في غمرة غيّهم، بـــل في حميّـــا مناوأتهم للربّ، فتهوي بغتةً قشور العَمَه عن عيونهم، ويدركون للوجود بُعدًا جديدًا يزجّون فيه وجودهم. بيد أَنّ ما هو أعمّ وأشمـــل، عمـــلُ النعمة الوئيد الصبور في نفوسٍ أَضناها البحث والتساؤل والنزاع، حتّى إذا ما تمّ فيها الانقلاب الجذريّ، بدا الانفجار مباغتًا، في حين أَنّ فتيل اشتعاله كان طويلاً جدًّا. إنّ عمل النعمة الدؤوب هذا يكرّس التضافر بين رحمة الله وحرّيّة الإنسان، في انتصارٍ تتألّق نتائجه وتظلّ معاركـــه خفيّةً مكتومةً.

وتكشف رحمة الله عن غنى نعمته ومجّانيّتها، تلك النعمة التي كثيرًا ما تعمل فينا في غفلةٍ عنّا، والتي تحدونا بإلحاح إلى نشدان خلاصـــنا، وتتولّى، إلى ذلك، المبادرةَ قبلنا. فالنعمة، وحـــدَها، تنتـــزع النفـــوس الأسيرة من قبضة جلاّديها، والربّ وحده يستطيع زحزحـــة رحـــى الماضي التي تسحقنا، على نحو ما زحزح يسوع حجر قبره.

"إنّ الله يُغدق العطاء، ويغلو في الكرم، ويهبنا أكثر ممّا نطلب، وكأنّه

يريدنا أن نخجل لأنّنا لم نطلب المزيد"، على حدّ قول جوليان غرين.

الأَحداث التي انطوت عليها هذه المجموعة القصصيّة تنهض دليلاً ساطعًا على عجائب النعمة، وتوفّر لكلّ منّا، نحن الخطأة الرازحين تحت وقر وَهَنهم وهوانهم، بارقة أَملٍ، وأسباب رجاءٍ، وهي تؤكّد قول جاك ماريتان: "أولئك الذين يراهنون على البراءة والنعمة هم الرابحون أَبدًا في نهاية المطاف".

وتؤكّد أَحداث هذه المجموعة، أَيضًا، حقائق هي جوهر إِيماننا: تؤكّد أَنّ القيامة لا تتحقّق إلاّ بالصليب، فلا سبيل إلى مجد القيامة سوى آلام الجلجلة، ومهانة الصليب؛ وتؤكّد أَنّ الموت ليس نهايةً بل هو بدايةٌ حقّةٌ لحياةٍ لا تنتهي.

وتؤكّد أنّ المسيحيّة، وإِن هي بدت محتضرةً أَحيانًا، إلاّ أَنّها في عصمةٍ من الموت، لأَنّ مؤسّسها قد خَبَر قهر الموت، والانبثاق من القبر.

وتؤكّد أَنّ الذين يدّعون تحقيق التقدّم بالقضاء على الدين وبازدرائه، إِنّما هم واهمون، فالإِيمان "شرطٌ لازبٌ لكلّ تحوّلٍ اجتماعيٍّ جديرٍ بهذه التسمية"، على حدّ قول جورج هوردان. والإِلحاد يتنافى وكوامن الطبيعة البشريّة، فهو لا يقتصر على إِنكار عقائد فحسب، بل يجهد في شلّ أَعمق ما في النفس من تطلّعٍ إلى الحقّ، وأَزخم ما فيها من تحفّزٍ إلى النور والخير.

ومن خلال هذه المجموعة تتجلّى، أَيضًا، روعة "شركة القدّيسين" السرّيّة، التي تكرّس تضامنًا مذهلاً بين الأبرار والخطأة، بين سكّان الأرض وأهالي السماء، بين من تفصلهم المسافات الشاسعة والأوضاع

المتباينة؛ تلك الشركة التي تجعل من راهبةٍ متواريةٍ في ديرٍ مغمورٍ، أو من عاجزٍ أَقعده مرضٌ عضالٌ، أو من عاملٍ متواضعٍ، أو من ربّة بيتٍ رهينةِ منزلها، عملةً أوفر جدوى، وأبعد أَثرًا في خلاص الآخرين من أَغزر الناس نشاطًا وأكثرهم جَلَبةً ودويًّا.

عبر هذه الشركة يفيض الله نِعَمهُ بفرحٍ وسخاءٍ، فهو ضعيفٌ أَمام الذين يرتضون السجن طوعًا كي يتحَرّر إِخوانٌ لهم من أَسر الخطيئة، ويستطيبون الضنْك وإِماتة الجسد كي ينعم إِخوةٌ لهم، لا يعرفونهم، باستقرار النفس، واطمئنان الضمير.

وبفضل هذه الشركة السرّيّة المذهلة، تصبح كلّ صلاةٍ، ولو كانت صلاة راعٍ صغيرٍ يسوق قطيعه، صلاةَ البشريّة كلّها جمعاء، ويغدو كلّ ما نُثِر من حبٍّ على مدى الأَجيال، وعلى دروب الزمن، بذور خلاصٍ أَبديّة الازدهار.

وأَخيرًا تنهض هذه المجموعة من الأحداث دليلاً على أَنّ "تلك السحابة من الشهود"، التي ما فتئت، منذ فجر المسيحيّة، توفّر للكنيسة أساطينها الراسخة، وعناصر ثباتها وازدهارها، هي في تكاثفٍ مطّرد، كما أنّها تدلّ على أنّ المسيح سيظلّ يستنهض، في كلّ جيلٍ، رسلاً له وشهداء، يوقّعون بدمائهم وببذل حياتهم عهد وفاءٍ له، وميثاق حبٍّ، على غرار حبّه المجنون.

أديب مصلح

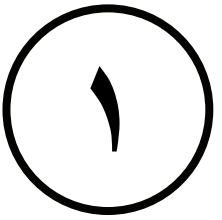

١

أيدٍ ملطّخة بالدّم

أيدٍ مُلطَّخَةٌ بالدَّمِ

كانت الظلمات المتسحّبة تتلقّف مجد المغيب الآخذ في الاضمحلال بسرعةٍ، والمياه الآسنة في الأَخاديد تلتمع، لحظةً، بكلّ ألوان قوس قزح، قبل أن تلتهمها، بنهمٍ، ظلال الحراج. وانطلق من الأرض المحروثة سربٌ من الغربان التي رسمت في السماء تعرّجاتٍ خاطفةً، ثمَّ توغّلت في ذؤابات الأشجار المتعالية المهيبة.

وأوقد الأب "يان" سراجه، وحثّ الخطى، فيما كان الصبيّ يلحق به، وهو يشخر، وأَحذيته الواقية المطليّة بالوحل تبقبق منتحبةً في الأرض الطريّة؛ وكان يهمهم ويشتم كلّما اصطدم بجذور الأَشجار. وجال في خاطر الكاهن أنّ خمسة فراست[1] جيئةً، ومثلها إيابًا، شديدة الوطء على فتًى طريّ العود. ثمّ التفت إِليه سائلاً:

– من الذي أرسلك؟

– الخالة ناستيا.

---

[1] جمع فرست، أي ما يساوي ١٠٦٧ مترًا.

– وتوقّف الأب "يان" فجأةً، وهو يحاول سبر أَنظار الصبيّ الشاردة، وقال له:

– إنّك تكذب.

وانخرط الفتى في البكاء، وهو يدمدم:

– أَرى أنّك لا تصدّقني، ومع ذلك أُقسم لك أَنّني أقول الحقّ. لقد قالت لي: "امضِ راكضًا إلى الكاهن لكي يأتي فيمنح الأَسرار الأَخيرة لجدّك"، وقد أعطتني كسرة خبزٍ وشريحة لحمٍ، ودفعتني نحو الباب، وأَضافت: "إِيّاك أَن تتسكّع في الطريق، إِذ لم يعد لديه متّسعٌ من الوقت".

– وما الذي جعله يبدّل موقفه، منذ مساء أَمس؟

– وكيف لي، أَنا، أَن أعرف؟ ربّما هي الراهبة التي أَنفذتَها، أَنت، إليه. كنتُ نائمًا آنذاك.

وانتفض الكاهن، من الدهشة، وسأل:

– أَيّة راهبة؟

– أَنت تعرف جيّدًا... فهي جاءت من قِبَلك.

كان الليل قد خيّم، وبدت الغيوم المتراكضة من المغرب إلى المشرق، وكأَنّها تعبث مع النجمات القليلة. وشرع الأب "يان" يزداد ضيقًا، ويستشمّ شركًا منصوبًا له، إذ كان الفتى مرتبكًا، ارتباكًا واضحًا، وهو يسرد حكايا أَشبه بالخيال. ولكن كيف له أن يتقاعس إِن كان ثمّةَ من الرجاء ولو ذرّةٌ واحدةٌ؟ بالأمس، كانت الخالة ناستيا، تلك الشمطاء الشرسة التي تزرع الرعب في المنطقة بأكملها، قد طردته

وأنذرته بأوخم عقابٍ، إن هو خاطر بالعودة نوبةً أُخـــرى. كمـــا أنّ المحتضر، ماتيو التأتاء، هو، أيضًا، من سوء السمعة بحيث لا يقدم على المجيء إلى وكره لمؤازرته على اجتياز الرحلة الكبرى، سوى مجنونٍ قـــد فقد كلّ عقله، على حدّ قول خوري "سوكو" الذي كان قـــد أنـــذر الأب "يان": سينصبون لك فخًّا، ولا من رأى، ولا من سمع.

وسلك الكاهن والفتى طريقًا عرضيًّا، حيث كانا يصطدمان، لدى كلّ خطوةٍ، بأغصانٍ تقطر ماءً، تحت سماءٍ مدلهمَّة. وكانت يـــد الأب "يان" اليمنى، المدسوسة في جيبه، تمرّ برفقٍ على حبَّات المسبحة؛ وَشيئًا فشيئًا كان الخوف يستحوذ عليه ويأخذ بخناقه، وتلهب رأسه ذكرياتٌ حافلةٌ بالهلوسة: مخيّمات فدائيّين، وكمائن، واقتحامٌ ضارٍ، تحت جـــنح الليل، بلا رحمةٍ، حيث القتل هو القانون الوحيد، وحيث البهيمة الجامحة تنتشي برائحة الدم، وذلك الجسد الثقيل وهـــو ينـــهار علـــى الأرض اللزجة، مطلقًا صيحة ألمٍ.

وارتعش الأب "يان"، فتلك الصيحة قد طالما طاردته، حتّى وهو في الإكليريكيّة، وحتّى يوم سيامته الكهنوتيّة، تلك الصيحة التي جعلت منه كاهنًا. إنّ ذلك الرجل المجهول الذي كان قد قضى عليه، مات بين ذراعيه، في ليلةٍ اختفى قمرها، مثل هذه الليلة. وأطبـــق الأب "يـــان" قبضته على المسبحة المحيقة بها: لا شيء في الوجود قادرٌ على إزالة الدم عن يديه، حتّى مسحة الكهنوت! وتردّدت في ذاكرته أقوال قائد فرقته الفدائيّة: "إنّ الإنسان يألف القتل، مثلما يألف الأمور الأُخرى". وهو

كان قد شرع يألف، عندما كُلّف، ذات ليلة، بدوريّةٍ، وطعن ذلك العدوّ العزيز. وفي الساعة التي تلت، انقلب كلّ شيءٍ: نفسه وقلبه. لقد كان جالسًا فوق الوحل اللزج، يمسك على ركبتيه رأس ذلك الرجل الذي سيظلّ، إلى الأبد، يجهل ملامحه. ثمّ دفنه، وهو ما يزال ساخنًا، تحت أكمةٍ، قبل الفجر. كان قد ألصق أذنه على قلبه الهامد، وتأكّد أنّ ذلك المجهولٍ قد مات حقًّا. وحينئذٍ، بيده اليسرى، التي لم تشترك في القتل، جسّ برفقٍ، مثل أعمى، قسمات ذلك الوجه: ذقنٌ مضى عليها أكثر من أسبوعٍ، وأنفٌ دقيقٌ... وعينان أطبقهما براحته. كان يمسك به فوق ركبتيه، متصلّبًا، وحيدًا. وتصرّمت ثلاث ساعاتٍ، على هذا النحو، قبل أن عزم على مواراته الثرى. ثمّ انسلّ، كاللصّ، تحت وابل العاصفة؛ وكان ليلٌ.

ولمّا عاد إلى المعسكر، قدّم تقريرًا عن عمليّته الناجحة، ثمّ استسلم للنعاس والإرهاق، وانهال فوق فراشه. وحينئذٍ، على ضوء مصباحه، لمح على يديه بقعًا سوداء. لم يكن في الجوار ماء، ولم تسعفه قواه على المضيّ إلى الساقية، فنام كالحجر، نومًا خاليًا من الأحلام. ولكنّه عندما استيقظ في الصباح وجد يديه مخضّبتين، وقد تيبّست بين أصابعه كتلٌ من الدم.

لقد لقي مشقّةً في غسل يديه، ولا سيّما أنّ الصابون كان مفقودًا. وكانت سترته أيضًا ملطّخة ببقعٍ بلون الصدأ. ثمّ، يوم هجر الجيش، عند انتهاء الحرب، اقتطع، من سترته تلك القطعة الملطّخة؛ ومذ ذاك، ما بارحته قطّ تلك "الذخيرة". وها هوذا، الآن، يتلمّس، في جيب

ردائه الكهنوتيّ الرحب، كتاب صلواته، حيث كان يخبئ "الـــذخيرة" داخل ظرف رقيقٍ.

وفجأةً خرس نقر المطر على أوراق الشجر، وازدحمـــت الـــسماء بالنجوم المتلألئة، وتشبَّث الصبيّ برداء الكاهن، شاكيًا:

– لقد فقدت فردةً من حذائي الواقي.

– لا بأس، ستجدها غدًا. ها قد أَشرفنا على الوصول. تُرى، هل ماء الريّ يغمر الحقل، وهل يسعنا سلوك دربٍ مختصرٍ؟

– ما عدتُ أبالي بالأمر، أَجاب صوتٌ نحيلٌ باكٍ، مـــا لبـــث أَن قذف شتائم كتلك التي يتلفّظ بها الكهول، بعد أن تعثَّر بجذر شجرةٍ.

ومع أنّ شعورًا بالارتياح، وصفاء الذهن، قد غمر فجأةً صـــدر الأب "يان" إلاّ أَنّ التعب كان يملأ رأسه بما يشبه الـــشرر المتطـــاير. وانحسر هامش الزمن، وعادت ذكرى تلك الليلة، حاضرةً بوضـــوحٍ. كان يرى المغدور، بعد أن تلقّى الطعنة في صـــدره، وهـــو يـــصيح: "ارحمني، يا ربّ". لقد كان بولشفيًّا، ومع ذلك كان مؤمنًا بالله.

وتدفّقت الذكريات تدفّق سيلٍ هادرٍ. لا بدّ أَنّ الخنجر كان قـــد أَصاب عظمًا، فهو كان قد لقي مشقّةً في استخراجه. وكان القتيل قد هوى، في الوحل، عند قدميه. أمّا هو فقد تولاّه الاضطراب من جـــرّاء صيحة الضحيّة. وفي محاولته استعادة خنجره، كان قد انحـــنى ليقلـــب الجسد المختلج. وحينئذٍ تلفّظ المحتضر بعبارتـــه الثانيـــة: "أحـــضر لي الإيقونة؛ وليأتِ الكاهن فيباركني بإيقونة المخلّص".

وجلس، هو، في الوحل، محتضنًا المحتضر، متسائلاً، في توجّعٍ، كيف السبيل ليلبّي له رغبته. وفجأةً تذكّر الميداليّة التي كانت أُمّه قد قلّدته إيّاها قبيل رحيله. لقد كانت أسرته تحتفظ بتلك الميداليّة، في خشيةٍ وورعٍ، وكأنّها كنز العائلة، منذ أن شوّهتها رصاصةٌ، على صدر جدٍّ بعيد. كان الزمن قد طمس ملامح السيّدة العذراء المنقوشة عليها. غير أنّ الليل الذي كان يحجب كلّ شيءٍ، كما يحجب عيني المحتضر، لم يَذَرْ للظواهر أيّ وزنٍ.

كان قد فكّ سترته، وانتزع المعدن المثلّث، وانحنى انحناءً سحيقًا حتّى ألصق الميداليّة بشفتي عدوّه، وقال له بالروسيّة: "هذه هي إيقونتك".

ولمست يده أَصابع ما لبثت أَن امتدّت نحو القطعة المعدنيّة، محاولةً التشبّث بها، ثمّ تصلّبت فجأةً، في حين همس الرجل: "شكرًا"؛ ثمّ أَردف بصوتٍ راح يزداد خفوتًا: "ارحمني، يا ربّ! ارحمني، يا ربّ!"

هل استغرق الأمر ثواني معدوداتٍ، أم قرونًا؟ لم يعد يذكر، إذ لم يكن، بعدُ، آنذاك، للوقت وجودٌ. بضع اختلاجاتٍ أُخرى،، ثمّ همد كلّ شيءٍ. أمّا هو فقد تريّث ردَحًا، قبل أَن ينتزع خنجره، وحينئذٍ تفجّر الدم...

ومنذ تلك الليلة الدامية، كم قد انزلق إلى دركاتٍ سحيقةٍ، ولفّه، من الدوار، ألوانٌ وتيّاراتٌ، إلى أَن أَقدم، يومًا، على الانتحار، ولكنّ الربّ تلطّف وتداركه، بعد أَن أَثخنته الجراح، ومرَّغته القذارة. وصعقه نور الله المباغت، فالتجأ إلى أَقرب كنيسةٍ صادفها على دربه، وعندما

خارت منه القوى، وتصرّم الأمل، في صحراء يغمرها الموت، عثر على ذلك الكاهن المتخفّي في كرسيّ الاعتراف. وجهٌ آخر لم يُكتب له أَن يراه، وكان له، على مصيره، وقعٌ حاسم.

إنّه ما انفكّ يسمع كلمات الكاهن، بعد أن أَفرغ بين يديه ما كان يرزح نحته من وقرٍ مرهقٍ: "يا بنّي، باسم يسوع أُعتقك. إنّ أَشدّ الجرائم قتامًا تغدو أخطاءً سعيدةً عندما يطهّرها دم المسيح. إنّ حبّه لنا من العظمة بحيث يفيد من كلّ شيءٍ، حتّى من خطايانا. ما زال أَمامك حياةٌ بأكملها لكي تدرك سماحة الرحمة".

وفي ذلك المساء، استأنف طريقه المتمادي، وقد غمر نفسه السلام. ولكنّه لم يكن سلامًا آمنًا مستقرًّا. فمن ثنايا تلك الليلة الداجية الدامية، كانت تتعالى، بين الفينة والفينة، أمواج القنوط الجارفة، تطارده، حتّى بين جدران الإكليريكيّة التي فزع إِليها، فزعه إلى واحةٍ، وسط عالمٍ متخبّطٍ. وحتّى بعد أن جعل منه الكهنوت إنسانًا آخر، كانت عظمته ترهبه، إذ كان يرين عليه شعورٌ بعدم الجدارة ليحلّ الآخرين من خطاياهم، ويبارك الأسرار.

وارتعش الأب "يان" عندما هتف الفتى: "ها نحن قد وصلنا. لقد وضعت الخالة ناستيا المصباح على النافذة، لتنير لنا الدرب". واعترى الكاهن الخجل من جرّاء شروده، بين الأطياف، بعيدًا عن الحضور الذي كان يغمره، عن الله الذي كان يحمله فوق قلبه، الربّ الذي غفر له، الربّ الذي يغفر للجميع.

وقفز الصبيّ فوق السياج، وخفّ نحو الباب الذي انفتح فجأةً على مصراعيه، حيث انتصبت امرأةٌ نحيلةٌ، طويلة القامة، تحمل مصباحًا، وصاحت بصوتٍ أَجشٍّ: "هيّا استعجلا، فقد أشفى الرجل على النهاية".

وردّ الكاهن، وهو يخلع معطفه المثقل بالمطر، ويفتح حقيبته: "السلام على هذا البيت".

ولكنّ سلامه لم يلقَ جوابًا. كانت الغرفة غارقةً في شبه ظلمةٍ يمزّقها ضوءٌ شحيحٌ ينبعث من مصباحٍ نائسٍ، ويكشف عن سريرٍ في زاويةٍ، تنطلق منه حشرجات احتضارٍ. وعبثًا بحث الكاهن عن طرف منضدةٍ يستطيع تحويله إلى هيكلٍ مؤقّتٍ. ثمّ أَخرج من جيبه، في صمتٍ، منديلاً أبيض، وزجاجةً صغيرةً، وأَنفذ الصبيّ ليأتيه بغصن شجرةٍ يجعل منه مرشّة ماءٍ مقدّسٍ، فيما كانت المرأة الشرسة لا تنفكّ تدمدم:

– كفاك تهريجًا، افعل ما عليك فعله، بسرعة، فالرجل قد أشفى على النهاية.

والتفت الكاهن نحوها وقال في رفقٍ:

– دعيني وحدي معه. وسأستدعيك حالما نفرغ.

وأغرقت المرأة بالضحك، وقالت:

– أَرى أنّك لا تفتقر إلى الحيلة! الآن، وهو تحت رحمتك، ستحمله على بصق كلّ ما في جوفه... إِنّي أعلم جيّدًا كلّ خطاياه. أعرفها أكثر منه.

ثمّ، بعد أَن قطع حديثَها عصفُ ريحٍ شديدةٍ تردّد له في المدفأة

ولولةٌ، وفي الغابة أنغامٌ مأساويّةٌ جليلةٌ، أصلحت العجوز السراج الذي امتدّت شعلته بفعل الريح، وقالت:

– ملعونةٌ هي تلك الراهبة التي قلبت عقله. حقًّا إنّك لتملك من الحِيل جرابًا مزدحمًا. فعندما تُطرَد خارجًا، تُنفذ راهباتك الغريبات الزيّ، اللواتي لا يحاولن حتّى التلفّظ بكلمةٍ، وكأنّ بهنّ صممًا وبكمًا... لقد جاءت وتغلّبت عليه.

و لم يستطع الكاهن الواقف عند حافّة السرير، عاقدًا يديه فوق حقيبته الصغيرة، إخفاء دهشته. فقد كان الصبيّ قد ألمح إلى حضور راهبةٍ اتّهم الكاهن بإرسالها، وها هي ذي المرأة الشرسة تردّد التهمة عينها. وراوده الفضول لاستجلاء حقيقة الأمر. وفيما كان يجيل ذلك في خلده، تعالت صيحةٌ كأنّها منبثقةٌ من قلب العاصفة، إذ كان المحتضر يجأر:

– لا أُريد أَن أَموت. أتسمع، أَيُّها الكاهن؟ إنّني لخائفٌ.

في تلك الأثناء، سرت على الجدار، الذي استند إليه السرير، أَشباحٌ غريبةٌ، ثمّ سُمع وقع أَقدامٍ، وبابٌ يُصْفق. والتفت الكاهن فتبيّن له أَن قد بات وحيدًا مع المحتضر الذي كان قد جلس وشخص بعينيه وهو يردّد بصوتٍ أَجشٍّ: "إنّني خائفٌ! إنّني لا أُصدّق شيئًا من ترّهاتكم: ليست الرحمة لأوغادٍ أَمثالي. أنا لم يبقَ لي سوى جهنّم، جهنّم، جهنّم...".

ثمّ حطّم صوتَه النحيبُ، وأردف:

– غير أَنّني قد أَذعنت، أَيّها الكاهن، واستقدمتك، فأيّ جوابٍ لديك؟

واستأنف، بعد أن رأى الكاهن يُخرج من حقيبته قربانًا، ويجثو أمامه:

– أهذا هو إلهك الذي جئتني به؟ وهل تظنّه يعير أمثالي اهتمامًا؟ لو كنت تعلم كم من الدماء تلطّخ يديّ. دماء رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ... هذه الدماء كلّها، أراها مثل ساقيةٍ جاريةٍ... انظر، إنّ الساقية قد غدت نهرًا.

واعترى الكاهن شحوبٌ شديدٌ، إلاّ أنّه انحنى فوق الرجل المدنف، وحدّق في عينيه الساهمتين، وهو يقاوم نفورًا تولاّه من رائحة التعرّق التي كانت تفوح منه. وبعد لحظةِ تردُّدٍ، جلس على حافّة السرير، وطوّق بذراعه اليمنى عنقه، برفقٍ، وقال:

– أجل، يا بنيّ، إنّي آتيك، حقًّا، بما يغسل كلّ تلك الدماء، أنهر الدماء... لقد سكب الربّ من الدم ما يكفي لإغراق جميع تلك الجرائم. ما دام الإنسان حيًّا فهو لم يفقد شيئًا. أتعلم ما هو الزمن؟ إنّه فخّ الرحمة.

– إذن، كان صحيحًا كلام الأُخت الراهبة. أليست الجحيم مصيرًا محتومًا لي؟ ولكن هل تعلم، على الأقلّ، سبب موتي؟ لقد غدروا بي، في أثناء المهمَّة الأخيرة، وكادوا يقضون عليّ. لقد قتلت بعضًا منهم، في أثناء فراري، ولكنّني كنت أنزف كالخنزير، والنزف يخلّف آثارًا؛ إلاّ أنّهم لن ينالوا منّي، حيًّا. لقد انتهى أمري؛ أدرك ذلك، والموت يوفّر لي بعض عزاءٍ؛ إنّني أتخيّل خيبتهم عندما سيجدونني ميتًا. بيد أنّ ما ينتظرني هناك، في الجانب الآخر، هو الذي يخيفني.

من خلال الضوء الشحيح، الذي لم يكن يبدّده سوى القليل من

العتمة السائدة، كان الكاهن يميّز وجهًا كالقناع، وعينين زائغتَين قد طفرتا من محجريهما، فيما تشنّجات الجسد المدنف كانت تهزّ السرير الحديديّ بأكمله. واحتضن الأب "يان" المحتضرَ، وأدنى أذنه من شفتيه، وبيده اليسرى وضع الصليب أمام عينيه، وقال:

– انظر يا بنيّ كم هو تألّم من أجلك، وكلّ الدم الذي سكبه في سبيلك. إن أنت هدرته فلن يكون ذلك ذنبه، بل ذنبك. لقد أعطاني السلطة كي أغفر لك، باسمه. وكلّ ما ستعترف لي به سيمّحي، بشرطٍ واحدٍ: أن تندم عمّا اقترفته. وكيف لا تندم على صلبك المسيح؟ ففي الواقع، يا بنيّ، خطايانا هي التي تسمّره على الصليب، خطاياك، وخطاياي؛ والاعتراف هو الذي يفكّه من الصليب. إنّني مصغٍ إليك.

وسكنت، بعض الشيء، حدّة التشنّجات، وتمتم المحتضر:

– لقد قالت لي الراهبة ذلك، ولكن لم يكن من اليسير تصديقها. وهل يهتمّ الله إن أنا صرت إلى جهنّم أم لا؟ وإن كان لا يفوته شيءٌ، فكم سيشعر بالاشمئزاز لدى رؤيتي، فأنا نفسي مشمئزٌّ من ذاتي. إيّاك أن تقول لي إنّه يحبّني. لقد قالت لي الراهبة ذلك، ولكنّي لا أُصدّقها، إذ يستحيل أن يُحَبّ إنسانٌ مثلي. وعلى أيّ حالٍ، أنا لا أُحبّ أحدًا، وخيرٌ لك أن تبتعد عنّي. أتسمع؟

وانتزعتْ منه محاولتُه دفعَ الكاهن بعيدًا عنه صرخةَ ألمٍ؛ وامتزج فواقه[1] بنحيبه، وأردف:

---

[1] الفُواق ما يأخذ المحتضرَ عند النزاع.

– ما بالكم تحاصرونني جميعكم؟ إنّي أريد أن أموت، كما عشت، في الحقد.

– ولكنّ استقدامك لي دليلٌ على أنّ حدّة حقدك قد همدت.

– راهبتك هي التي أمرتني بذلك.

– الربّ هو الذي أنفذها إليك، لا أنا.

– الأمران سيّان. أمّا ذنوبي، فإنّني أحتفظ بها. فإن كنت لا تستطيع الحيلولة دون موتي، ابتعد عنّي.

وخبا نظره فجأةً، وثقل لسانه. وسأله الأب "يان":

– ألم تحبّ أحدًا في حياتك؟

– بلى، أحببت أُمّي، ولكنّها ماتت وأنا حَدَثٌ صغيرٌ؛ ثمّ أحببت حفيدتي ماري آنّ التي هجرتني. لقد فعلتْ بي ذلك، مع أنّي كنت أُحبّها. ومذ ذاك انقلب الحبّ لديّ بغضًا.

– لا بل إنّ البغض سينقلب حبًّا. يا بنيّ. إنّ الربّ أرسلني لأبلّغ إليك أنّه يحبّك رغم جميع خطاياك. وتلك الراهبة التي جاءت فأبلغتك ذلك لم تخدعك. والآن ما عليك إلاّ أن تردّ بنعم أو بلا.

وللمرّة الأولى في حياته، خُيّل إليه أنّه كان يقرأ في قلب ذلك الرجل. كانت قافلة الذنوب تمرّ بكلّ وضوحٍ أمام عينيه، ونهر الحمأة يتحوّل إلى كلمات. ولم يكن المحتضر يعترض، بل كان يُقرّ، برأسه أوّل الأمر، ثمّ بضغطٍ يده. أجل، لقد كانت تلك الخطايا خطاياه، وأحسّ بأنّ عبأها قد أُزيل عن كاهله، وشيئًا فشيئًا، انقلب تجهّم وجهه إلى ابتسامةٍ مشرقةٍ.

وقال له الكاهن:

– تعبيرًا عن توبتك ستتقبّل الموت. إنّ يسوع قال لرفيق آلامه: "اليوم ستكون معي في الفردوس". ومذ ذاك ما انفكّ يردّد هذا القول لمن يقبلون التطهّر بدمه الذي سكبه من أجلك. أتستطيع الشكّ بحبّه لك؟ حتّى لو أنت أبغضته، فهو يحبّك. هيّا قل له، في قلبك، إنّك تريد أن تحبّه، وإنّك تريد أن تندم، وأنا، باسمه، سأغفر لك.

كان الأب "يان" قد آزر محتضرين كثيرين، ولكنّه لم يعانِ، يومًا، مثل ذلك الصراع الحادّ. والكلمات التي كانت تنبعث من ذلك الصراع غير المنظور، كانت تبدو ضئيلة الشأن حيالَ الرهان الجسيم. ولكن هل هي كانت كلماتٍ فحسب؟ فعند حدود الحياة، لا يبقى سوى الجوهر. وعندما انبعث الرجل الهالك من الهوَّة، خُيّل للكاهن أنّه شعر بخفيف أجنحةٍ سوداء، وبكلماتٍ تردّد، في داخله: "هوذا حمل الله، الذي يرفع خطايا العالم".

وداهمت الأب "يان"، الذي كان الجهد قد أرهقه، موجة شكٍّ وتمرّد. فالنعمة التي كانت تنساب من يديه لم تفلح في إعتاقه من قلقه، والسلام الذي كان ينشره لم يخيّم على نفسه. لقد كان يهب ما لا يملك؛ والعاصفة التي كانت تزمجر في الخميلة المجاورة، إنْ هي كانت سوى انعكاسٍ لاضطرابه. كان لا يزال جاثيًا أمام السرير، ولكن، في أغوار نفسه، كان يؤرّقه الشكّ في حقيقة النعمة. لا، لم يكن ممكنًا أن يخلص ذلك الرجل الذي غفر، هو، له، باسم الربّ. فكيف لندمٍ متأخّرٍ، وشبه لاواعٍ، أن يزيل

كلّ تلك الحمأة التي تراكمت سحابة عمرٍ بأكمله؟ ويداه، هو الكـــاهن، أليستا ملطّختين، إلى الأبد، لطخةً لا شفاء منها؟ لقد حدّق فيهما، علـــى ضوء السراج المتراقص، الذي كان يرسم على الجدار المقابل أشباحًا كبيرةً، وهو يردّد في داخله: "إنّ جميع طيوب بلاد العرب لعاجزةٌ عن طرد تلـــك الرائحة الحادّة، وكلّ مياه المحيطات لن تغسل تلك اللطخة الباقية".

وأَيقظته من شروده رعشةٌ اعترت فجأةً المحتضر الذي كان قـــد شخص بعينين واسعتين نحو زاوية الغرفة، وقد عبّرت جميع قسماته عن دهشةٍ بالغة، وتمتم دفعةً واحدةً: "إذن، كان ذلك صحيحًا"؛ ثمّ هوى على وسادته.

وهبّ الأب "يان" ناهضًا، وسأل في حرقةٍ: "ما هو الذي كـــان صحيحًا؟" ولكن لم يأته أَيّ جواب، فالرجل كان قد فارق الحياة.

وأَنذرت الصيحة المرأة التي كانت تترقّب خلف الباب، فهرعـــت مسرعةً إلى الغرفة، وهتفت منتصرةً:

– هل قُضي الأمر؟ أَرجو ألاّ يكون قد باح بكلّ شيءٍ. وعلى كلّ حالٍ، فهو كان يهذي.

وتناول الكاهن السراج، ودنا من السرير، وقال:

– انظري إليه.

لقد كان الموت قد جمّد على شفتيه ابتسامةً، وأَعاد إليه ملامـــح شبابٍ مدهشةٍ. وانحنت المرأة، وبعد أَن راقبته عن كثبٍ، دمـــدمت، وهي تقبض بعنف على منديلها الأسود:

– لقد كانت محقّةً، إذن، تلك الراهبة الملعونة. إنّه يبدو إنسانًا آخر.

وارتعش الأب "يان" مرَّةً أُخرى. وكان لا بدّ من إلقاء الضوء على سرّ الراهبة الذي لم يستطع استجلاءه، فسأل:

– كيف كان شكلها، وما الذي قالته؟

– وأنّى لي أَن أعرف؟ لقد كان حديثها موجّهًا إليه. وقد انتصبت هنا كالوتد. ورأيتها تحرّك شفتيها. حينئذٍ صاح: "ائتوني بالكاهن".

وقال الأب "يان" برفق:

– لقد أَوصاني "ماتيو" أَن اصطحب الفتى.

فقفزت المرأة مثل جنّيةٍ مهتاجة، وصاحت:

– هذا ما كنت أَتوقّعه! تلك هي صفقاتكم. ولكنّك لن تظفر به.

ثمّ راحت تجأر، مناديةً الفتى:

– ميشيل، ميشيل.

وهرع الصبيّ الذي كان ينصت في ترقّبٍ، وأَخذ يجأر بدوره، وبكلّ طاقة رئتيه:

– لا، لا أُريد، لا أُريد. ستحاول أَن تجعل منّي كاهنًا، وأَنا أُحبّ أَن أَعيش على هواي.

وطوّقته الخالة ناستيا بذراعيها، مطَمْئنةً:

– القانون إلى جانبنا. فأمّه غائبةٌ، ونحن أَقرب أقربائه. ولم يعد لهذا (وأَشارت إلى سرير الميت) أيّ شأن. أَمّا أَنت فلست تملك دليلاً. ومن ثمّ، فأنا أحتفظ بالصبيّ. والآن، أيّها الكاهن، اغرب عنّا.

ولكنّها، بغتةً، صمتت، وأصغت بانتباه، إذ توقّف فجأةً هدير محرّكٍ، ونبحت الكلاب نباحًا حادًّا، ودوّت صفّارةٌ، ثمّ دُفع الباب بعنفٍ وصخبٍ، ودخل رجلان على رأس كلٍّ منهما خوذةٌ وفي قبضته رشّاشٌ، وسألا:

– أين "ماتيو بيدا"؟

وتراجعت الخالة ناستيا بضع خطواتٍ إلى الوراء، وقد اتّسعت عيناها، وتباعدت يداها، معبّرة عن الاضطراب، ثمّ أومأت برأسها:

– ها هوذا.

وانقضّ الجنديّان، وأحاقا بالسرير، وقد صوّب أحدهما رشّاشه صوب الحاضرين صائحًا: "أيديكم إلى فوق"، فيما قبض الآخر على الجثّة، ثمّ ما لبث أن قال:

– لقد مات. ولكنّه ما برح ساخنًا، ونحن نمسك بالشركاء المتواطئين.

وفجأةً انتفض الجنديّ المكلّف بحراسة الحضور الذين تحوّلوا إلى شبه تماثيل من ملحٍ، وقال:

– انظر، ههنا كاهنٌ.

– بل قل: لصٌّ مموّهٌ.

وراح يتفحّصه بمصباحه:

– من أنت؟

– خوري سولوفيفكا. وقد استُدْعيتُ لخدمة محتضرٍ.

– من أين لك هذه الحكايا؟ أرني أوراقك.

وتناول الأب "يان" محفظته من جيب جبّته، وبسط تصريحه. ولكنّ الجنديّ بادره بالقول:

– عليك أَن تخجل من الاختلاف إلى بيوت القتلة.

ثمّ أوعز إلى رفيقه بالمضيّ في تفتيش الكاهن. وأمر المرأة والصبيّ بالسكون حتّى انتهاء التحقيق. وترك الكاهنُ الجنديَّ يفرغ جبّته، من غير أن يبدي حركةً، أو أن يتلفّظ بكلمةٍ، إلى أَن سأله الجنديّ، وهو يرفع حبلاً معقّدًا غرست فيه مسامير:

– ما هذا الجهاز؟

– أداة تكفيرٍ.

وأَغرق الجنديّ في الضحك، وقال مكشِّرًا:

– رائحة القرون الوسطى النتنة تفوح منه.

ثمّ التفت إلى رفيقه، وقال:

– بوسعنا الآن أَن نطلق سراحه، وستسنّى لنا فرصة مقابلته من جديدٍ.

وأَضاف، مخاطبًا الكاهن:

– إِيّاك أَن تنسى ما باح لك به.

واعترضت المرأة، وهي تفرك يديها:

– لقد كان فاقدًا الوعي، فقد جاؤوا به مثخنًا بالجراح، مثقبًا كالمنخل...

ولكن الجنديّ قاطعها:

– اخرسي أيّها الطاعون.

وعاد فالتفت إلى الكاهن، متصنّعًا الأدب:

– ما زلنا في حاجةٍ إلى خدماتك، أَيّها الكاهن. إنّ ديانتك تملي عليك إقامة العدل.

وردّ الأب "يان"، وقد كساه شحوبٌ شديدٌ وشخصت عيناه بالجثمان:

– أنا لست في خدمة العدل، بل في خدمة الرحمة.

– هذه ترّهاتٌ باليةٌ. ففي ظلّ حكمكم، كان الشعب مسحوقًا باسم الدين. وإنّما قد جئنا لنعيد الأمور إلى نصابها. انطلق، في الحال، قبل أَن أبدّل رأيي. سنستأنف الحديث بعد بضعة أيّامٍ، وحينئذٍ سنرى هل أنت مواطنٌ صالحٌ.

وحدجت المرأة الكاهن بعينَيْن حاقدتَيْن، وقالت:

– عليكم أَيضًا التحقّق من هُوِيَّة الراهبة.

– أيّ راهبةٍ؟

– تلك التي يرسلها للاستطلاع، كي يتمكّن من المحتضرين.

– ألديكَ، إِذن، راهباتٌ في أبرشيّتك؟

وواجه الأب "يان"، من غير أَن يرفّ له جفنٌ، النظرات التي كانت تتفحّصه كالمثقب:

– أنا لم أرسل أَحدًا، وفي أبرشيّتي لا توجد أَديرةٌ. ولست أَدري عمّن هي تتكلّم.

ولاحظت المرأة منتصرةً:

– أترون كم هو مرتبكٌ؟ لقد كانت واقفةً هنا، في مكانك، وقد رآها الصغير. إلاّ أنّ الكاهن اعترض بصوتٍ هادئٍ:

– لقد اعترف لي، في الطريق، بأنّه لم يرَ شيئًا.

– إنّه يكذب. أوَتظنّ أنّنا كنّا استدعيناك لولا تلك السافلة؟

كان أحد الجنديّين، ممتطيًا كرسيًّا، متّكئًا على مسنده، يصغي في متعةٍ إلى النقاش.

ثمّ بادر إلى حسمه، قائلاً:

– سينجلي كلّ شيءٍ عمّا قريب، ولا حاجة إلى تخاصمكم كالشحّاذين. وعلى أيّة حالٍ، إن كانت هناك راهبةٌ فهي من لحمٍ ودمٍ، وسنضع يدنا عليها. إنّكم محوّطون، وتطهير المنطقة لا يتطلّب سوى أيّامٍ معدوداتٍ...

في تلك الأثناء خرج الجنديّ الآخر من القبو، مضطربًا، وقال لرفيقه:

– يوجد هنا مستودع متفجّرات يكفي لنسف المنطقة بأكملها... يا لهم من عصابة أوغاد! والكاهن هو الذي يرعاهم! لقد حان الأوان لكي نقضي على إلههم الفاسق.

حينئذٍ هبّت الريح بعنف فأثارت في المدفأة زوبعة من الرماد؛ وردّدت الغابة القريبة أنغامًا شجيّةً سرعان ما صمتت. وعبّأ العريف غليونه بهدوءٍ، وأشعله، ثمّ استلّ من جيبه دفترًا صغيرًا، وخربش بضع كلماتٍ، ثمّ ناول الكاهن ورقةً:

– هذا تصريحك. امضِ الآن، وسنتقابل، غدًا، من جديدٍ.

مطارق لا تحصى كانت تدقّ في صدغي الكاهن، الـذي أخـذ بـه الإرهاق كلّ مأخذ، وفجأةً، لحظ أنظارًا مثقلةً بالحقد، ملتصقةً به، إذ كانت العجوز تحدجه بمثل عينٍ كاسرٍ ينقضّ على أرنبٍ مسكينٍ. وكان العريـف يتأمّلهما ساخرًا، ويتخيّل، مسبّقًا، طرافة مشهد مواجهتهما، لاستجوابهما.

ثمّ قال للكاهن:

– هيّا لملم أشياءك، وامضِ.

وراح الأب "يان" يجمع، في حركةٍ بطيئةٍ متعبةٍ، الأشياء المتنـاثرة على المنضدة، وقد حرص على دسّ المذخرة في جيب جبّته الـداخليّ، فوق قلبه (غالبًا ما جال في خاطره، وهو يصطحب القربان المقدّس: لو هم غدروا بي، لذاب القربان في جسدي الحيّ، ولتحاشيت، بذلك، عن التدنيس). ثمّ بارك جثمان ماتيو، وجميع الحاضرين الذين كانوا يراقبونه في حقدٍ، واجتاز العتبة متعثّرًا.

وما كاد يخرج حتّى استند إلى الجدار، منهك القوى، فيما كـان الهواء الطلق ينعش رئتيه المختنقتين، والصمت يغمره كالبلسم. وكـاد يتّهم نفسه بالهلوسة، عندما رأى طيف الفتى ميشيل الهزيل يطفو مـن العتمة، ويبادره بالتهديد:

– سأُلحِق بك كلّ ما أستطيعه من شرٍّ. وإن اقتـضى الأمـر أن أكذب، فسأكذب. إنّي لأمقتك.

ثمّ بصق عليه.

لولا المادّة اللزجة التي سالت على خدّه، ومسحها بحركةٍ لا شعوريّة، لكان الأب "يان" قد ضمّ هذا اللقاء الخاطف إلى طائفة الأشباح التي كانت تواكبه، إذ كان الإرهاق الذي نال منه قد محا الحدود الفاصلة بين عالم الواقع والأحلام المزعجة التي كانت تعبث بذهنه. كان يواصل سيره، وهو نائمٌ، كالآلة، ويوقظه، بين الفينة والفينة، اصطدامه بجذورٍ أو بجذوعٍ تسدّ طريقه، أو بصيحات الضواري؛ وكانت تلك اليقظات المفاجئة تضخّم آثار صدماته، وتسهم في انطلاق شريط الشكّ والقلق، الذي لم يعد يقوى على ضبطه.

إنَّ خبث الفتى الذي لم يدرك له تفسيرًا، لم يكن سوى حلقةٍ في سلسلةٍ تشدّه إلى الماضي بلا رحمة. فقد بدت له الحياة الروحيّة التي طالما ناضل في سبيل بلوغها، مثل طلاءٍ لم ينجح في إخفاء لطخة ثابتةٍ لا تمّحي. وتدفّقت عليه، من جديد، جريمته التي قد طالما بكاها وأقرّ بها وأُعتق منها. ومرّةً أُخرى، ساقه ذلك الهذيان إلى الشعور الساحق بعدم جدارته بكهنوته، بحيث خُيّل إليه أنّه إنّما ينتهك المقدّسات كلّما أعطى ما لا يملك، وما لا يستطيع امتلاكه: السلام، والفرح، والحقّ في النعمة.

كانت وساوسه معروفةً، يوم كان إكليريكيًّا؛ وكان معرّفه يصغي إليه إلى أن يضيق ذرعًا، فيلجأ إلى أمر الطاعة، ليوقف نهر القلق المتدفّق، والذي، حتّى في انسيابه تحت الأرض، لا ينفكّ يحدث أذًى خبيثًا مكتومًا، حتّى تحين ليلةٌ مثل هذه الليلة، تتحطّم فيها السدود، ويتفجّر النهر سيلاً مدمّرًا.

وإلى قافلة الوساوس انضمّت ذكريات حياةٍ حافلةٍ بالقسوة، منذ تلك الغرفة الوحيدة التي كان يتقاسمها مع والديه وإخوته الثلاثة وأخواته الخمس، إلى يومٍ هوى والده البنّاء، فقضى نحبه، وهو لا يزال في الرابعة من عمره؛ وعملت أمّه غسَّالةً لكي تقوم بأوَد عيلتها الكبيرة، فما لبثت أَن أودى بها الإرهاق. وبات هو يتيم الأبوين، قبل أن يبلغ سنّ الرشد؛ وتولّت رعايَته أرملةٌ تعمل في ندف صوف الفُرُش، فرضت عليه وتيرة عملها الشاقّة، بحيث غدت أَصابعه الصغيرة تنزف، من عنت العمل، دمًا؛ غير أَنّ المرأة لم تكن تغمطه حقّه، بل توفّر له اللقمة النظيفة واللباس اللائق. ولكنّها سرعان ما أُصيبت بشللٍ أَقعدها، فبات عليه أَن يتدبّر أمره بنفسه وهو بعدُ في السادسة عشرة. فعمل في ورشات بناءٍ متنقّلةٍ، وخَبَر القسوة والتشرّد، والاختلاط الوبيل، وعرف، باكرًا، أَسرار الحياة. أَمّا ما كان يدعوه الناس متعةً، فكان يثير فيه الغثيان. أَمّا المرَّة الوحيدة التي خفق فيها قلبه بعنف، فكانت تلك الليلة التي مات فيها العدوّ المجهول بين ذراعيه، ولطّخ الدم يديه. وتدفّقت ذكريات تلك الليلة دفّاقةً لا تقاوم. كيف استطاع مقتل رجلٍ مجهولٍ أَن يقلبه رأسًا على عقبٍ؟ لقد عرف، في أعقابه، الخوف والذهول والقنوط، إلى أَن قرّر الانتحار، وحينذاك، التقى ذلك الكاهن الذي، بغفرانه، انتشله من وهدة يأسه. وهكذا انقلبت محاولته الانتحار مولدًا جديدًا، فعزم على أَن يهب الله تلك الحياة التي كان يهمّ بالتخلّص منها.

ربّما كانت خبرته تلك بالظلمات هي التي دفعته تلقائيًّا نحو أَعتى

الخطأة، وشدّت هؤلاء إليه. وقد شاع عنه ذلك منذ أيّام الإكليريكيّة، عندما كان، ورفاقَه، يغشون الأرياف لتعليم الدين، فيختاره المتصلّبون لمناقشته وللبوح بأسرارهم الخطيرة، بحيث دعاه زملاؤه، في شيءٍ من الغيرة، "صندوق القمامة". صحيحٌ أنّه كان من طرازٍ فريدٍ، صموتًا، خشنًا، وأنّ اللغة اللاتينيّة واللاهوت كانا عاجزين عن النفاذ إلى ذهنه، وأنّ نصف كتاب الصلوات كان مستغلقًا عليه إدراكه؛ ولولا الافتقار إلى الكهنة، والظروف السائدة بين ١٩٤٥ و١٩٤٨، لكان رؤساؤه، على الأرجح، قد دعوه إلى البحث عن دربٍ آخر غير درب الكهنوت؛ غير أنّ المسؤول عن تربيته الروحيّة قد تولّى الدفاع عنه، وقد أوجز حجّته بقوله: "إنّه يعرف الإنجيل عن ظهر قلبٍ، وغيرته على خلاص النفوس مضطرمةٌ. أمّا الباقي فسيكتمل، شيئًا فشيئًا؛ وإنّي أراه، منذ الآن، يحقّق عملاً جسيمًا".

كلّ تلك الذكريات والهواجس كانت تتوارد وتتلاحق في خاطره، وهو يسير، بلا شعورٍ، يقوده حدْسه، وتوقظه بين الحين والحين صدمات الأغصان الواطئة المثقلة بالمطر، فيما كانت سدول الظلمة تنحسر برفقٍ عند الأفق، وقد بدت القرية مبهمةً، في نهاية الطريق، مستديرةً كالعشّ، تتسحّب فوقها غماماتٌ رماديّةٌ لا تلبث أن تضمحلّ. إنّ تلك الفترة الحائرة، حيث الفجر المؤذن بالانبثاق يطرد فلول الظلمات المدبرة، قد طالما غذّت الهواجس وولّدت الأشباح. وارتعش الأب "يان" لحظةً، وهو العليم بما توحيه تلك الساعة من قلقٍ،

وما تثيره من مخاوف، ولا سيّما في قلوب المرضى واليائسين. وجال في خَلدَه ذلك التحالف السرّيّ بين الشرّ والظلمة، وتجلّت له روعة واقع شمعة الفصح التي تمزّق ليل الخطيئة؛ وتوطَّدَ لديه شعورٌ بجسامة مهمّته: خاطئٌ بين ظهراني خطأةٍ، عليه أن يصارع باستمرارٍ، وبكلّ طاقاته، قوى الظلمة الخبيثة.

منعطفٌ آخر وتبادره قبّة الكنيسة؛ ولكنّه توقّف بغتةً أمام ما بدا، أوّل الأمر، وكأنّه غمامةٌ قد تكثَّفت، واتّخذت شكلاً آدميًّا. ولكنّه سرعان ما اجتاز الخطوات القليلة التي كانت تفصله عن امرأةٍ جالسةٍ على مرتفعٍ صغيرٍ من الطريق، وقد خلّف المطر والإعياء آثارًا وبيلةً على وجهها الفيّ المثقل بالمساحيق. كانت سترتها المصنوعة من جلد الخراف تقطر ماءً، وخمارها الملتصق بجبينها يخفي شعرها وحيّزًا كبيرًا من وجهها، بحيث لم يلمح الأب "يان" في البدء، سوى فمٍ نهمٍ، قرمزيّ اللون، يحاول كبح نوبة نحيبٍ.

بصوتٍ تجمّعت فيه الدهشة والحزم، سألها الكاهن:

– ماذا تفعلين ههنا؟

فتأمّلته بنظرةٍ معاديةٍ، ومن غير أن تتحرّك، أجابته:

– تابع طريقك، أيّها الكاهن، فليس لديك ما تفعله لمومسٍ مثلي.

– ولكنّك ستقضين هنا نحبك. هيّا انهضي.

– وما شأنك أنت، إن كنت أنا راغبةً في الموت؟ الأمر لا يعنيك.

– بل إنّه يعنيني، فأنت مبلّلةٌ حتّى العظام. أيّ مكانٍ تقصدين؟

– أقول لك: دعني وشأني. امضِ في طريقك، ودعني.

كانت أسنانها تصطكّ بعنف، بحيث يتعسّر عليه فهمها. وكانت أَحذيتها ذات الكعاب المرتفعة وثيابها المزركشة تنمّ عن كونها غريبةً الدار. وربّما هي كانت قد هجرت منزلها، بتأثير سورة غضبٍ. وعلى أيّة حالٍ، لم يكن بوسعه أَن يدعها وشأنها، وهي على ما هي عليه، في مثل تلك الساعة. وتردّد، هنيهةً، ثمّ دنا وقبض ذراعها بقوّةٍ، وأمرها بالنهوض. فامتثلت كالآلة، إلاّ أنّها ما كادت تنتصب واقفةً حتّى ترنّحت وتمتمت:

– لم يعد لديّ على السير قدرةٌ. ألا ترى ذلك؟

كانت تحدجه بأنظارها، مثل حيوانٍ محاصرٍ، وكانت الدوائر البنفسجيّة المحيقة بعينيها تسهم في تشويه تبرّجها. أَمّا هو فأمسك بها، وكأنّه ممسكٌ بكيسٍ، وشدّ حول خصرها ذراعه اليسرى، وجرّها مرغِمًا إيّاها على مسايرة خطواته، في مشيةٍ متعرّجةٍ.

وشيئًا فشيئًا، أَضفت الشمس المشرقة شفافيّةً على الضباب المتسحّب. وفجأةً، تفرّست المرأة في الكاهن، في كثيرٍ من القحة، واستحوذت عليها ضحكةٌ هستيريّةٌ، وقالت:

– لستَ أَفضل من سائر الرجال! جميعكم متساوون، جميعكم.

ثمّ صمتت، محاولة كبح نوبةٍ جديدةٍ من النحيب.

وأَيقظ تلميح المرأة، لدى الكاهن، حيرةً وهواجس كانت قد ساورته قبيل قراره اصطحابها عنوةً. كان يثق بأنّ هناك من يعرفون طويّته، ويطمئنّون إلى سلوكه، ولكنّ هناك الباحثين عن الفضائح،

المولعين بالنميمة. وهناك الضعفاء الذين قد يتعرّضون للشكوك. وتوقّف، لحظةً، متردّدًا، حائرًا، ولكنّه سرعان ما ظهر على جبنه. وخطر له أَن يودع المرأة الغريبة لدى إِحدى نساء الرعيَّة... ولكنّه خشي أَن تُقَابَل بالبرودة والريبة، فتزداد يأسًا، ولا سيّما أَنّها قد حاولت، كرّاتٍ متتاليةً، التملّص من قبضته، ورغم إِعيائها لم تكن تتورّع، بين فينةٍ وأُخرى، عن رشقه بأقذع الشتيمة، وبقحةٍ لا تتوافق ووضعها الزريّ.

كانا قد أَصبحا على مقربةٍ من الكنيسة، وقد أَخذ ظهور المارّة يزداد: فها هي ذي امرأةٌ تعود بدلوين من الماء؛ وها هوذا "باسيل" وقد علّق منجله على كتفه يباغتهما فيشرئبّ حاجباه دهشةً، ويحيّيهما: "تبارك الربّ، سيّدنا يسوع المسيح"، فيردّ الكاهن: "إلى الأبد" من غير أَيّ تعليقٍ. وبدلاً من سلوك دربٍ ملتوٍ، واصل الأب "يان" سيره على طريق الكنيسة، متحدّيًا جميع الأقاويل. وأَخيرًا، دفع بوّابة السور، منهكًا، ولا سيّما أَنّ رفيقته قد باتت عليه، في الشوط الأخير من المسيرة، عبئًا باهظًا. ولكنّه قبل أَن يُغلق البوّابة تسنّى له أَن يرى عيني "آغات" العجوز تتفحَّصانه في مثل حدّة المثقب.

وانهارت المرأة المجهولة فوق مقعد مبقور، وظلّ الكاهن واقفًا يحاول استشفاف الأسرار الكامنة وراء قناعٍ لم يقوَ على النيل كثيرًا من وجهٍ ما زال شابًّا. ومرَّةً أُخرى حدجته المرأَة، في قحةٍ، وقالت:

ألك علمٌ بتعرفة أُجوري؟

وظلّ هو يتأمّلها، صامتًا. ولكن سرعان ما تبدّد كلّ ما كان يساوره من قلقٍ وحيرةٍ، وغمر نفسه السكون، وسيطر عليه شعوره بالمسؤوليّة حيال تلك المسكينة التي كانت تتظاهر بتحدّيه. لقد كانت، في الواقع، تحدّيًا حيًّا. وكان هو، يستشفّ، من خلال تجاربه المريرة، الآلام التي كانت تثخن روحها، بل كان يسمع لهاث نفسها الأسيرة.

وأوجعتها نظراته الصريحة، النورانيّة، فأطرقت، واستأنفت تظاهرها بالتحدّي الوقح:

– بالطبع، عليّ أن أكتفي منك بأجرٍ زهيدٍ، لأنّك، رغمًا عنّي، أنقذت حياتي.

وما كادت تنهي عبارتها حتّى عرتها القشعريرة، واصطكّت أسنانها اصطكاكًا صاخبًا، ولم ينبس الكاهن بكلمةٍ، ولكنّه أحاطها بغطاءٍ صوفيٍّ، وسار بضع خطواتٍ صوب الباب، ولكنّه، عند العتبة التفت، وقال في كثيرٍ من الرفق:

– يا ابنتي، أنا لا أطلب منك سوى أن تُصيبي شيئًا من الراحة. سأُعدّ لك كوبًا من الشاي المركّز، وبعدئذ سنتحادث. أُريد لك خيرًا، فقد وضعني الربّ على دربك، وأنا مسؤولٌ عنك.

– إلهك لا يستطيع لي شيئًا.

– بل إنّه مات على الصليب من أجل إنقاذك.

– كلّ هذه خرافات راهباتٍ. أنا أيضًا قد تلقّنت التعليم الدينيّ، ولست أومن به. إنّ الحياة شديدة القسوة، والله غائبٌ عن حياتي.

– بل هو أكثر حضورًا ممّا تظنّين، يا ابنتي المسكينة. ما اسمك؟

– هذا أمر لا يعنيك. لنقل إنّني أُدعى "ماري آنّ" باسم المعمودية، ولن أَبوح لك بالمزيد.

وقصد الكاهن مدخل البيت فأوصده، وأودع المفتاح جيبه، فيما كانت المرأة متربّصةً تَرَبُّص حيوانٍ متأهّبٍ للانقضاض، ترصد حركاته:

– أَتسجنني، إذن؟ لا ينقصك، بعدُ، سوى استدعاء رجال الشرطة؛ ولكنّك لن تظفر منّي بأيّ اعترافٍ، أيّها الكاهن المسكين.

في تلك الأثناء، كان هو واقفًا مستقيمًا، وقد تدلّت جبّته السوداء الطويلة فوق كتفيه، مثقلةً بالمطر، يراقب شيئًا مثبتًا فوق رأسه. وتلقائيًّا رفعت المرأة نظرها إلى حيث كان هو يتطلّع. فمقابل المكتب العتيق، المصنوع من خشب السنديان، والمزدحم بالكتب، كان، ثَمّةَ، صليبٌ يعبّر عن واقعيّةٍ وجيعةٍ. فنّيًّا، كان يمكن تصنيفه عملاً رديئًا، إلاّ أَنّه كان من صنع واحدٍ من فئة أولئك النحّاتين المغْفَلين المغمورين، الذين يحرّك إِزميلَهم الحبّ أكثر ممّا تحرّكه الصنعة. ذلك الصليب المخفيّ تحت القشّ في مستودعٍ، فوق خمّ الدجاج، أَيّام كان النازيّون يحطّمون الهياكل، هو الإِرث الوحيد الذي تسلّمه الأب "يان" من أسلافه. لقد كان يظهر جسد المصلوب مغرقًا في الاستطالة، وأعصابه مشدودة بحيث تكاد تتقطّع، معبّرةً عن تمزّقٍ مرعبٍ. واليدان المسمّرتان عند المعصمين كانتا تنوءان بوقر الجذع الذي نفرت ضلوعه، وانحنى لاهثًا. والرأس المكلّل بالشوك كان يتدلّى فوق العنق، موازيًا العارضة

العموديّة. وكان يتجلّى النزاع الرهيب في كلّ دقائق الجسد الذي لواه الألم، وينحفر في قسمات الوجه الذي كان يقطر عرقًا ودمًا. وحده النظر الأنوف الجليل كان يبدّد انطباع المهانة الزريّة المنبعثة من المصلوب المتألّم؛ وبفضل صنعةٍ عفويَّة، كان المثّال قد وجّه ذلك النظر بحيث لا يفلت منه أحدٌ، في أيّة زاويةٍ كان من الغرفة.

تلك الواقعيّة القاسية التي لا تتماشى والنموذج الرائج، الذي يمثّل المصلوب بطلاً رياضيًّا ملقًى بأناقة فوق صليبٍ وهميٍّ، كانت قد صدمت الكاهن للوهلة الأولى. ولكنّه، شيئًا فشيئًا، في أثناء مناجاته الطويلة الصامتة مع المصلوب، كان قد أدرك أسرار الآلام وفظاعتها، ثمّ زاده إدراكًا لها ما شهد من حالات الموت العنيف، ومن فنون التعذيب المرهفة الضراوة، التي قد طالما تعرَّض لها إخوانه الكهنة والرهبان.

وقلّما كان الغريب الذي ينظر إلى ذلك المصلوب يقوى على مواجهة نظرته. وهكذا كان شأن المرأة الغريبة، التي سرعان ما نزعت عنه نظرها، وعبّرت جميع قسماتها عن رعبٍ لا يوصف، فتقوقعت فوق المقعد، وأخفت وجهها في ثنيّة ذراعها المتّكئة على المسند، وانزلق الخمار عن رأسها، حاسرًا شعرًا مصبوغًا مشعَّثًا، لصق العرق خصلاته، فيما كان النحيب يهزّ كلّ جسمها هزًّا.

وانسلّ الكاهن بتؤدة، وأقفل باب المطبخ، من غير أن يُحدث ضجّةً، غير أنّ نقرةً على الباب المؤدّي إلى الحديقة باغتته. لقد كانت "آغات" العجوز التي جاءت تتسقّط الأنباء، وقد لفّت جسدها البدين

بشالٍ أسود، وانطلقت كتلة شعرها المجدول عاليةً، وقد شدّت قبضتيها على خصريها، في وقفة تحدٍّ، وتفرّست في الكاهن، وسألتْ:

– ما الأمر، إذن؟

لقد كان قد شاع في القرية أَنّ ماتيو التأتاء قد استدعى الكاهن، وكانت "آغات" العجوز قد حذَّرته من تلك المخاطرة؛ غير أَنّ الفضول الذي زاد وجهها المكتنز احمرارًا، في تلك اللحظة، كان يستهدف، في المقام الأوّل، المرأَة الغريبة التي اكتشفت حضورها. بيد أَنّ الكاهن تجاهل أسئلتها، ومثل مبارزٍ ماهرٍ ردّ عليها بسؤالٍ:

– من هي تلك الراهبة التي زارت "ماتيو"، ومن الذي أَحاطها علمًا؟

– يا يسوع ومريم ويوسف! لم يكن ينقص اللوحة سوى الراهبة! وكيف لراهبةٍ أَن تقتحم وكر الزنابير ذاك؟ ولو هي فعلت، لكانت العجوز أوسعتها ركلاً، وضربتها بالمكنسة لتطردها! أَلستَ تبدو وكأنّك تنام وأَنت واقفٌ؟

ولكي تؤكّد استنكارها لمحاولة الكاهن الزوغان عمّا كانت ترمي إليه برواياته الجوفاء، بادرته بسؤالٍ مباشرٍ:

– وما أمر تلك المرأة التافهة التي جئتَ بها؟

واستمرّ الكاهن يراقب مغلاة الشاي التي كان قد أَوقد النار تحتها، ومن غير أَن يلتفت، أَجابها:

– أَجهل من أَين هي آتيةٌ. لقد وجدتها ترتعد من البرد على الطريق.

– وأَنت جئتنا بها. وهي ستستثير كلّ شبّان القرية بسحنتها المصبّغة. من الواضح أَنّك تفتقر إلى الخبرة في هذا المجال، ولكنّي أحذّرك...

– أيّتها الأمّ "آغات" سنتحدّث في ذلك، لاحقًا، إنّ لهذه المرأة نفسًا أتحمّل مسؤوليّتها أمام الله. والآن دعي إناء الحليب ههنا.

ولم تجسر على المضيّ في النقاش؛ والتمعت عيناها السوداوان المدفونتان في كثافة اللحم الطريّ، بالغضب والاستنكار، ودمدمت قبل أن تصفق الباب:

– تبارك سيّدنا يسوع المسيح.

وانطلقت، على عجلٍ، لتنشر الفضيحة في كل أرجاء القرية.

وعندما أخذت مغلاة الشاي تدندن، تنامى إلى سمع الأب "يان" صوتٌ قادمٌ من خلال باب مكتبه. وخطر له، أوّل الأمر، أن تكون "آغات" العجوز قد ولجت البيت من المدخل الأمامي، لتروي فضولاً لم تستطع مقاومته. ولكنّه سرعان ما تذكّر أنّ مفتاح ذلك الباب كان يثوي في جيبه، فشقّ الباب على مهلٍ، ووقف مذهولاً: فالصوت الذي كان يسمعه، آنذاك، لم يكن يشبه في شيءٍ صوت ضيفته المجهولة، الأجشّ، القاطع، الوقح، بل كان صوتًا آخر، رقيقًا، تحجبه العبرات، شجيًّا، فتيًّا. من ذاك الذي كانت تخاطبه؟ وشدّ الكاهن السمع، فبلغته هذه العبارات:

– يا يسوع المسكين! إلى أيّ حالٍ أوصلوك؟ يا ليديك المسكينتين المسمّرتين! أيّة آلامٍ تسبّبانها لك! ويا لرجليك المسكينتين! رجليك

المثقوبتين من طرفٍ إلى الطرف الآخر. لن تقوى أبدًا على السير بمثل هاتين الرجلين! ولن تستطيع أبدًا العمل بيديك الممزّقتين! إنّ يديك ورجليك توجعانني، ورأسك المكلّل بقسوةٍ يؤلمني... أيّ شعورٍ بالخجل قد اعتراك، وأنت في مثل هذا العري! ويا لأمِّك المقيمة إلى جانبك، أمّك المفجوعة، أمّ محكومٍ بالإعدام!

قبل أن يفتح الكاهن الباب، أوقع محراك النار، فأحدث جلبةً صاخبةً. وارتعشت المرأة الواقفة أمام الصليب، والتفتت، فيما كان مضيفها يتقدَّم بحذرٍ، حاملاً صينيّةً مثقلةً، وقبل أن يضعها على مكتبه، كانت هي قد استعادت مكانها فوق مقعدها. وفجأةً، تجهّمت، مثلَ ولدٍ فُرِض عليه عقابٌ، ولكي تستعيد جأشها، استلّت من حقيبتها أدوات تبرّجها، وعكفت على تخضيب شفتيها وخدّيها. ولم يُعِر الكاهن الأمر انتباهًا، ومضى يسكب الشاي، على مهلٍ، ثمّ أضاف إليه الحليب، وقدّم لضيفته السكّر، قائلاً:

– هذا سيوفّر لك بعض الدفء.

– وماذا عنك؟

– أنا! لديّ متّسعٌ من الوقت. ثمّ عليّ، عمَّا قليل، أن أحتفل بالقدّاس.

– وإذن، فعليك أن تظلّ صائمًا، بعد مثل هذه الليلة؟ إنّها ليست مريحةً، حياة الكاهن.

– لا، هي ليست دائمًا مريحةً.

– وإذن، فلمَ أنت تعقّد وجودك بيدك؟ و لمَ تحمّل نفسك عبئًا لا طائل تحته، عبء الموت، مثلي؟

– ما الموت، يا ابنتي، سوى وعدٍ بالقيامة. وما أدراك؟

– أعلم أنّني صائرةٌ إلى جهنّم.

– لن تصيري إليها، إلاّ إذا أردت ذلك بكلّ قوى إرادتك.

– كلامك مضحكٌ حقًّا! ومن ذا الذي يرغب في جهنّم؟ بل الناس يرغبون في الخطيئة، وهي التي تقودهم مباشرةً إلى جهنَّم. إنّني أعرف مبادئ الدين. فقد سلخت ستّ سنواتٍ عند الراهبات، ومجرّد ذكراها يثير فيّ الرغبة في التقيّؤ.

وفي تلك الأثناء، كانت ترشف الشاي بنهمٍ، ممسكةً الفنجان بكلتا يديها، وترفع رأسها بين الفينة والفينة، كي تستعيد أنفاسها، وتجيب على كلمات الكاهن بعباراتٍ متقطّعة. ووضع الكاهن، برفقٍ، أمامها، طبقًا خشبيًّا عليه بعض الخبزٍ والحلوى، معتذرًا عن افتقاره إلى الزبدة. فأجابت:

– لا أكترث بالزبدة. المهمّ أن أشرب شرابًا ساخنًا. أمّا الآن فعليّ أن أنصرف. وطالما أنّك تأبى استيفاء أجرك، عينًا، فتبًّا لك.

كم كان صوتها، آنذاك، مختلفًا عن ذاك الذي كان قد تنامى إليه، قبل لحظاتٍ، من خلال فرجة الباب! وانتاب الكاهن شعورٌ، كان قد سبق له أن راوده في ظروفٍ مماثلة، بأنّه حيال حضورٍ غير مرئيٍّ. وبغتةً تفجّرت من نفسه الصلاة، بعد أنٍ كانت ينابيعها قد انحبست رَيْثًا من

الزمن. وراح يخاطب الله، في لجاجة: "يجب أن أُنقذ هذه النفس، يجب أن أنقذها بأيّ ثمنٍ". قلّما كان يجازف بعقد مثل هذه الصفقات مع الله لعلمه بأنّ الربّ، أبدًا، يحمل كلامه محمل الجد.

كانت المرأة قد هبّت واقفةً. غير أنّها، بغتةً، تسمّرت في مكانها، وقالت في هدوءٍ، وهي تؤكّد كلّ مقطعٍ من كلامها:

– إنّ يديّ ملطّختان بالدم. لقد قتلت طفلي، طفلي من كاهنٍ.

وربّما هي توقّعت استنكارًا صارخًا، فوارت وجهها بيدها اليسرى. ولكنّها، إزاء الصمت الذي قابل اعترافها، رنت، في تساؤلٍ حائرٍ، إلى الكاهن الذي انتصب واقفًا مغمض العينين، وقد أطبقت أصابع يده على صليب مسبحته، ثمّ اعترف، في تؤدةٍ:

– أنا، أيضًا، يداي ملطّختان بالدم.

وتراجعت المرأة، وقد اتّسعت حدقتاها، وامتلأتا ذعرًا:

– إذن، أنت لست كاهنًا حقيقيًّا؟

وسحابة ثانيةٍ، خُيّل إليه أنّه قد أفسد كلّ شيءٍ بإقراره المذهل، الذي أفلت منه، في شبه غيبوبةٍ. إلاّ أنّ موجةً عارمةً من السلام ما لبثت أن غمرت نفسه، واعتراه إحساسٌ بأنّه مسيّرٌ بقوًى سرّيّةٍ، وأنّ العبارات التي أخذ يتلوها، بصوتٍ خافتٍ هادئٍ، إنّما كانت تُملى عليه من مصدرٍ سرّيٍّ:

– بلى، يا ابنتي، أنا كاهنٌ، وأتمتّع بجميع السلطات التي تؤهّل لها الرسامة الكهنوتيّة. وبهذه اليد التي قتلت، أستطيع أن أحلّك من خطيئتك؛

وبها، كلّ صباحٍ، أُمسك الحمل النزيه من كلّ عيبٍ، وألمس الكأس المليئة بدمه. لقد رحمني الله، فهل تظنّين أنّه لا يقدر أن يرحمك، أنتِ أيضًا؟

وتداعت المرأة، وكأنّ قوّةً غير مرئيّةٍ قد أوقعت بها، وتمتمت:

– كيف استطعت أن أعترف! كيف استطعت أن أتكلّم؟

والتفتت إلى الكاهن الذي أجابها، وعيناه ما انفكّتا شاخصتين إلى الصليب القائم فوق المنضدة:

– هو الذي منحك القوّة على الاعتراف. هو الذي، مسبّقًا، قد اشترى كلّ شيءٍ، وافتدى كلّ شيءٍ.

– حتّى هذا؟

– حتّى هذا. فقد كلّفناه ثمنًا غاليًا. وغاليًا اشترانا.

كان يدرك وزن الاعتراف، في مواجهةٍ مثل هذه. فقد طالما صارع شيطان الصمت! إنّ الخاطئ ضنينٌ بالشرّ الذي يخفيه في حرصٍ إخفاءه لكنزٍ ثمينٍ، وكأنّه ملكٌ يأبى التنازل عنه. وغالبًا ما يبدو انتزاع اعترافٍ، يتمنّع عنه صاحبه، معجزةً أخطر شأنًا من انبعاث ميتٍ.

وبالفعل، كانت المرأة تحاول التراجع عن اعترافها، وتنسج، بمهارةٍ، شبكة الكذب:

– لقد هزئت بك، أيّها الأحمق! إنّك تتلقّف كلّ ما يقال لك، مثل الذباب.

وجال في خاطره ناقوس التبشير الذي كان عليه قرعه عمَّا قريب، والذي سيعقبه، في الساعة التاسعة، ناقوس الحزن، إيذانًا بالقدّاس الذي

سيقيمه عن نيّة إحدى بنات رعيّته المتوفّاة، ثمّ ماتيو التأتاء الذي استطاع اللحاق به عند المنعطف الكبير، وعيناه المثقلتان بالحقد، وبصاق الفتى ميشيل... كلّ ذلك كان يتشابك، ويتلاحق، ويتفاعل معًا، في صلب تلك اللحظة الحبلى بالأبديّة. ثمّ قال للمرأة:

– يا ابنتي، لو كنت تعلمين ما أسمعه من خلال كرسيّ الاعتراف، لما استطعت الادّعاء بأنّك أكبر خاطئة في العالم، وماأنت اقترفته قد اقترفه، للأسف، غيرك من قبلك. إنّ الوحل يتشابه، لأنّه لا شكل له. أمّا ما يميّزنا، فهو الاسم الذي يعطيناه الله، والذي يتحتّم علينا أن نكون له أوفياء وفاءنا لشيكٍ وقّعناه. إنّ الحبّ هو الذي يصوغ قسمات وجهنا. أجل، إنّ الخطأة متشابهون.

كان يتكلّم بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع، غير عابئٍ بالمرأة الماثلة أمامه مصغيةً إليه، وقد شخصت عيناها، واسعتين، وهي تحاول خنق عبراتها، والتي ردّت:

– حتّى لو كان ما تقوله صحيحًا، فما حيلتنا؟ فلا شيء، في العالم، يقوى على محو ما قد تمّ... لقد كان يغضّن عينيه، هكذا... ما زلت أرى يديه الصغيرتين تطفوان من الماء، مثل وردات خماسيّة البتَلات، وتتحرّكان، تتحرّكان مثل زهراتٍ نينوفر حيّة. وكنت أنتظر أن يُقْضى الأمر، وينتهي كلّ شيءٍ. وهو، الآن، يأتيني كلّ ليلةٍ فيسألني: "لِمَ، يا أمّاه، أغرقتني؟ وما الذي فعلته حتّى تقتليني؟" أوه!

كانت تفرك يديها، وتجأر مثل حيوانٍ جريحٍ. وتلقائيًّا، التفت

الكاهن نحو النافذة، خشية أن يسمعها أحـــدٌ... ولكنّـــه لم يحـــاول تهدئتها، فقد كان يرجو لها دفق الدموع المنقذ ذاك. لقد كان رأســـها متواريًا بين طيّات ذراعيها، والنحيب يهزّها، لا بل يمزّقها، مثلما تفعل آلام المخاض. ودقّت الساعة معلنةً عن السادسة، فقال لها برفقٍ:

– يا ابنتي، سأمضي لأدقّ ناقوس التبشير. لا تبارحي مكانـــك، سأعود في الحال.

جدران الكنيسة الصفيقة العتيقة لم تكن تتيح سوى تسرّب ضوءٍ شحيحٍ من خلال نوافذ مستديرةٍ عاليةٍ. وفوق الهيكل الرئيس، كانـــت عذراء من جبسٍ تمدّ نحو الشعب يدين مشرعتين، تنطلق منهما أَشـــعّةٌ ذهبيّةٌ. وفيما عدا ذلك، كانت الكنيسة، في أعقاب الحرب، قد غدت شبه عاريةٍ، على خلاف ما عهده المؤمنون مـــن وفـــرة الإيقونـــات والتماثيل. وكان بعض الفنّانين المحدثين يؤيّدون ذلك التجرّد المطلق في الكنائس، غير أَنّ الأب "يان" كان يشاطر عجائز القرية حسرتهنّ على غياب بعض القدّيسين الشعبيّين. غير أَنّ ما كان يشدّه، فـــوق كـــلّ شيءٍ، فهو بيت القربان الذي كان يجذب عينيه وقلبه، منـــذ ولوجـــه الكنيسة. وكان يعتقد أَنّ أَحدًا لا يستطيع الإفلات من أَســـر ذلـــك الحضور السرّيّ الذي يندّ عن الوصف. ولكنّه، في ذلك الصباح، كان على عجلةٍ من أمره، فانحنى انحناءَةً سريعةً، أمام الهيكل، وهرع إلى حبل الجرس، وفيما كان يشدّه، كانت تضرّعاته إلى الله تتفجّر من أعمـــاق كيانه. فقد كان يعاني شعورًا يائسًا بالفراغ، حيال تلك البائسة الـــتي

التقطها على قارعة الطريق. ومثل هذا الشعور كان يرهقه كلّما تصدّى لخطأةٍ عتاةٍ. كان كلّ شيءٍ، في أَعماقه، يصاب بالشلل، وينتابه دوار الهاوية، ولا يبقى ينبض فيه سوى إيمانه بمسؤوليته الكهنوتيّة، وبوديعة الغفران الموكلة إليه، والتي يوزِّعها لسانه ويداه، فيما نفسه ترزح تحت وقر الحمأة التي تبدو وكأنّها تتدفّق من الخطأة عليه. خطاياهم كانت تسحقه، فكأنّه متضامنٌ مع جميع خطأة العالم، بل متواطئٌ معهم.

بعد أَن قرع الناقوس، جثا عند أَقدام الهيكل، ومن هوّة اضطرابه، توسّل إلى الربّ يسوع أَن يفي بوعوده، فيوقظ تلك الخاطئة التي يهدّدها اليأس، رغم التعاطف الكامن في أعماقها، إذ كان مشهدها المذهل أمام الصليب، ما انفكّ يعتمل في حنايا نفس الكاهن.

ولّما عاد إلى البيت الرعويّ، وجدها منهارةً فوق مقعدها، وقد انسابت الدموع على وجنتيها؛ وقد بادرته غاضبةً:

– أَيّها الكاهن، لَمَ لم تَدَعْني لمهنتي القذرة؟ وهل أَنا كنت في حاجةٍ إلى التقائك على دربي؟ يا لتلك الراهبة السافلة، ذات الأنظار التي تحاكي أَنظار المتسوّلين. لقد تمّ كلّ شيءٍ بجريرتها.

وجهد الأب "يان" في السيطرة على فضوله، مع أَنّ أَمر تلك الراهبة كان يؤرّقه. ولكنّ الظرف كان يحتم عليه حصر اهتمامه بالجوهريّ، بتلك النفس اليائسة التي باتت موشكةً على الاستسلام، وقد استشفّ على شفتيها اعترافًا مؤذنًا بانعتاقٍ وشيكٍ. فجلس على مقعد المطبخ الواطئ، بعيدًا عن نظرها، وقبع ينتظر.

وانقضت لحظاتٌ لم يملأ صمتها سوى تكتكة الساعة الكبيرة، وحفيف شجرةٍ قرب النافذة. ثمّ فجأةً، شرع صوتٌ خالٍ من أيّة نبرةٍ، يعترف:

– أنا ماري آنّ حفيدة ماتيو التأتاء. لقد جاءتني الراهبة، وأَنبأتني بأنّه يصارع الموت، ولكنّني ضللت طريقي، وعلى أيّة حالٍ...

وتردّدت لحظةً، ثمّ استأنفت:

– على أيّة حالٍ، كان من الأفضل ألاّ يراني على نحو ما أنا قد صرت إليه.

وردّ الأب "يان" برقّةٍ:

– لقد مات تائبًا، وكنت عائدًا بعد أن زوّدته بالأسرار عندما التقيتك في الطريق.

– أَهو، إِذن، مات ميتة مسيحيٍّ؟ وهل أَذنت لك الخالة ناستيا بدخول المنزل؟

وتلكّأ هنيهةً، وخطر له أنّه من الأَفضل إِغفال ذكر الراهبة، ثمّ قال:

– لقد جاء الفتى ميشيل في إِثري.

– ولكنّ هذا مستحيلٌ. إِنّها لأعجوبةٌ حقًّا.

وجثت على الأرض وواصلت:

– لقد كانت الراهبة مصيبةً عندما قالت لي إنّ الرحمة الإلهيّة تلاحقنا، جدّي وأَنا، ومع ذلك خطر لي، في تلك الليلة، بعد أَن ضللت طريقي، أَن أَنتحر! من أَنت، إذن، لكي تبادر إلى انتشالي؟

– أَنا؟ خاطئٌ مسكينٌ خُوِّل سلطان الغفران، باسم سيّد الرحمة.

– وهل يمكن لفتاةٍ ضالّة مثلي أَن تخلص؟

– إنّه قد جاء باحثًا عن كلّ ضالٍّ.

– ولكنّني قد قتلت ابني. هل تعي معنى ذلك؟ قتلته يأسًا وخجلاً.

– أَنا، أَيضًا، يا ابنتي، قد قتلت. كان ذلك في الحرب. غير أَنّ الدم يلتصق باليدين. إنّني أَفهمك...

– وإِذن؟ وإِذن؟ هل يمكنك أَن تحلّني من ذنبي؟

– جميع جرائم العالم، حتّى أَشدّها بشاعةً، قد أُغرقت إلى الأبد، في دم يسوع. شرطَ أَن نتقبّله...

وقد ختم الأب "يان" حديثه لي[1] بقوله:

– كلّ ما تلا كان اعترافًا. لقد نقلت إِليك نتفًا ممّا باحت به قبل ذاك؛ ومرّةً أُخرى تحقّقتُ من وزن الفداء الذي ينطوي عليه دم الحمل النزيه من كلّ عيبٍ، الذي يغسل كلّ خطايا العالم، ويمتزج بالدم البريء الذي تريقه جميع ضحايا الدنيا، وجميع الشهداء، وكلّ الذين يرضون، ولو في اللحظة الأَخيرة، أَن يقدّموا موتهم من أَجل خلاص العالم. وكثيرًا ما كنت سأخسر المعركة، لو لم تكن يداي، أَنا أيضًا، ملطّختين بالدم. إنّ الحادثة التي رويتها لك كانت مفترقًا في حياتي الكهنوتيّة، فمنذ تلك الليلة لم يراودني اليأس قطّ...

---

[1] أي للمؤلّفة.

وسألته:

– ولكن، هل لك أن تخبرني بما حدث بعد ذلك؟

– كنت عالمًا بقدوم رجال الأمن، فأودعت ماري آنّ مكانًا أمينًا، وزوّدتها بتوصيةٍ لراهبات الرحمة الإلهيّة في س... حيث وجدَتْ مكانها ودعْوتَها.

– وماذا عنك أنت؟

– أنا؟ الأمر في منتهى البساطة. فرجال الأمن رفضوا تصديقي، عندما أقررت جهلي كلّ شيءٍ عن الراهبة التي أقنعت الخالة ناستيا باستدعائي، والتي، في آنٍ واحدٍ، وعلى بعد ٤٠ كيلومترًا أنبأت "ماري آنّ". وكانت عاقبةُ ذلك سجنًا استمرّ سنتين حافلتين بكلّ ضروب الاستجواب، وأساليب "الإقناع"، وليس أقلّها الوقوف شهرًا بأكمله في حالة يقظةٍ.

– ولكن توفّقت، فيما بعد، إلى الوقوف على هويّة تلك الراهبة السرّيّة؟

– كلاّ، وقد طالما حاولت عبثًا، إذ لم يشاهدها أحدٌ، لا في القرية ولا في الضواحي. وعلى أيّ حالٍ، كان خطرًا جدًّا أن تتجوَّل نساءٌ بمفردهنّ. وحتّى الرجال ما كانوا ليخاطروا بالتجوّل في الغابة. وكان معقل ماتيو التأتاء عسير المنال، بحيث كنت، أنا، عاجزًا عن النفاذ إليه من غير دليلٍ.

وبالإجمال لقد سبّبت لي تلك الراهبة الكثير من المتاعب، ولكنّني لست نادمًا على ذلك إطلاقًا، فقد كان السجن يفتقر إلى كاهنٍ، وقد أُتيح لي أَن أصالح محتضرين كثيرين مع الله. لا بل، منذ وصولي، هرع إليّ أَحد حرّاس السجن وهو يصيح: "لدينا سجينٌ يرفض، منذ أسبوع، أَن يموت، وهو يجأر باستمرارٍ: أريد كاهنًا! أريد كاهنًا! لست أريد أَن أَموت ميتة الكلاب". وبعد أَن سمعت اعترافه، وزوّدته بالأسرار الأَخيرة (فقد كنت أَحتفظ بقربانٍ مقدّسٍ مخبّأً طيّ بطانة سترتي) تنهّد من أعماقه قائلاً: "الآن يسعني أَن أموت"، ثم قضى نحبه.

وصمت لحظةً، ثمّ أردف بصوتٍ خافتٍ:

– مع ذلك، لقد ظفرت بدليلٍ يشير إلى تلك الراهبة. فقد كتبت لي "ماري آنّ" مؤكّدةً أنّ الراهبات اللواتي استقبلنها كنّ يرتدين مثل زيّها، وأنّها تعرّفت على الراهبة نفسها لمّا رأت صورة الأخت فوستين المتوفّاة لاثنتي عشرة سنةً خلت[1]... لقد كانت تلك الراهبة السرّيّة رسول الرحمة الإلهيّة لدى كلٍّ من ماتيو التأتاء، وحفيدته ماري آنّ...

[1] الأخت فوستين راهبةٌ پولونيّةٌ توفّيت عام ١٩٣٨، وكانت قد انتُدبت لنشر رسالة "يسوع الرحيم" وقد تأسّست، بعد موتها، جمعيّةٌ رهبانيّةٌ، بوحيٍ منها، لبثّ هذه الرسالة. وقد تولّى البابا يوحنّا بولس الثاني، نفسه، مذ كان كاردينالاً، متابعة دعوى تطويبها. أمّا بطل هذه الرواية، الأب "يان"، فاسمه الحقيقي هو الأب ميلكوڤسكي، وقد توفّي في شهر شباط من عام ١٩٨٦، وبالتالي فقد بات ممكنًا الآن البوح باسمه الصريح، من غير تمويهٍ. هذا ما أفضت به إليّ الكاتبة ماريّا ڤنوڤسكا، مؤخّرًا، في باريس (المترجم).

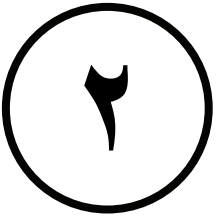

تنشوما الطاعون

تشوما الطاعون

في معتقل أوستيـــقـــيميوك بسيبيريا، كان وغدٌ يافعٌ، في السادسة عشرة، ينفّذ إحدى العقوبات المتتالية التي لا ينفكّ يُحكم عليه بمثلـــها، من جرّاء اقترافه جرائم السرقة وقطع الطرقات. وكان شـــديد الزهـــو بسجلّه العدليّ الحافل الذي يتذرّع به لإيهام محيطه وإرهابه.

منذ حقبةٍ بعيدةٍ، كان قد استبدل اسمه الرسميّ نيقولا نعومـــوف بلقب تشوما الطاعون، الذي كان يوفّر له في المعتقل قدرًا جمًّـــا مـــن الاعتبار. رشيقًا كان كالسنجاب، وداهيةً كابن عرس. وفي مثل ومضة برقٍ كان يسلب رفاق المعتقل ممتلكاتهم الوضيعة، ليردّها لهم، فيما بعد، لقاء تنازلهم له عن حصّتهم من السكّر والخبز. لقد كان، في مـــضمار مبادئ الأخلاق، ينفّذ شعار اللصوص بحذافيره: "ما أملكه هو لي، وما تملكه أَنت هو أَيضًا لي". كان مرهوب الجانب، وكانت تلك الخـــشية التي يوحيها ضمانًا له من الجوع.

منذ ثماني سنواتٍ، كان قد ألف التشرّد على الطرقـــات، ونهـــب السابلة. وعندما كان يسأل، في محاكم الأَحداث: "أَين والداك؟" كان يجيب، في كثيرٍ من اللامبالاة: "ليس لي والدان"، ويمـــضي موضـــحًا

للقاضي المستهجن جوابه: "حقًّا ليس لي أَبٌ ولا أمٌّ. فعندما كنت طفلاً جاؤوا إلى بيتنا فقتلوا أَبي، وأودعوني "الديتدوم"[1]، وبالتالي لم يبقَ لي أَبٌ ولا أمٌّ".

وفي المعتقل كان شيخٌ ضئيل الجسم، أَشيب اللحية، يعلو أَنفه المستقيم نظّارتان صفيقتان، ويبدو غريبًا متميّزًا عن سائر المعتقلين. ومذ التقاه تشوما اصطفاه ضحيّةً له مفضّلةً. فما إن أَذن موعد الطعام، حتّى انتهز الفتى الشرّير الازدحام السائد عند مدخل المطعم، وإذا بنظّارتي الشيخ تطيران في الهواء، ثمّ تستقرّان، بمثل فعل السحر، في جيب تشوما. وفَقَد الشيخُ كلّ قدرةٍ على الرؤية، وراح يتعثّر في كلّ خطوةٍ، وما عتّمت أَن غطّت جبينه الكدمات. وبعد أن تمتّع تشوما بالمنظر، وملأ صدره الزهوّ بما صنع، دنا من الشيخ، وأسرّ في أذنه: "هاتِ حصّتك من السكّر، فأردّ لك نظّارتيك".

– كم أنت لطيفٌ! أجاب الشيخ مبتسمًا؛ هاك السُّكّر، ولك خالص شكري.

وذهل تشوما، إذ إنّ عملاً كالذي قام به حريٌّ، وفق قواعد تصفية الحسابات المتّبعة في المعتقل، أَن يجرّ إلى شجارٍ رنّان. وقد حداه النَهَم والفضول إلى تكرار فعلته مثنًى وثلاثًا ورباعًا... وفي كلّ نوبةٍ كان يقابَل بالابتسامة العريضة عينها، وعبارة الشكر العابقة باللطف ذاتها.

---

[1] "بيت الأحداث" حيث يودع الأيتام، وأَبناء "المؤمنين" الذين يتعيّن تنشئتهم من جديدٍ على الإلحاد.

غير أنّ الشيخ قد بادره، ذات يومٍ، بعد أن استعاد منه نظّارتيه بالقول: "أصغِ إليّ، يا تشوما، إنّنا، عبثًا، نعقّد الأمور، فلنبرم إذن اتفاقًا: أنت لن تسطو، بعد، على نظّارتيّ، وأنا أتنازل لك، باطّرادٍ، عن حصّتي من السكّر".

وتأمّل اليافع الشرّير الشيخَ الضئيل، في حذرٍ وريبةٍ، متسائلاً عمّا يمكن أن يجول في ذهنه من مكيدةٍ؛ بيد أنّه، بعد أن راز الاقتراح جيّدًا، ألفاه مجزيًا، لا سيّما أنّ عامل الإثارة الذي كان يتمتّع به، من جرّاء السطو على نظّارتي الشيخ، قد تثلّم بفعل التكرار؛ وتشابكت اليدان تثبيتًا للعهد.

ومع ذلك ظلّ الأمر ينطوي على سرٍّ يقلق بال الفتى، فعزم على أن يستجليه، يومًا، ويريح صدره، فسأل الشيخ: "قل لي، أيّها الرفيق، لِمَ لا تثور غاضبًا، ولو مرّةً واحدةً؟ أو لِمَ لا تشكو للإدارة أمري؟"

وشاعت ابتسامةٌ عريضةٌ على محيّا الشيخ، وبدا وكأنّ قبساتٍ ذهبيّةً أخذت تتراقص بخبث في قعر نظّارتيه، وأجاب:

– لأنّني لو فعلت، لما أصبحتَ، أنت، أفضل.

– ولماذا تريدني أن أصبح أفضل؟ اعترض تشوما مستهجنًا.

– لأنّي أُحبّك. وكلّ امرئٍ يرغب في أن يصبح من يحبّ أفضل فأفضل.

واستبدّ العجب بلبّ تشوما، فهو لا يذكر أنّ أحدًا قد أحبّه يومًا، لولا تلك الذكريات الغائمة، كأنّها أضغاث حلمٍ بعيدٍ، تتراءى له فيها أمّه

وهي تقبِّله، وتشدو له مهدهدةً، كي ينام، لّما كان طفلاً... ولكن علامَ الوَهَن العاطفي؟ ها هوذا يشعل سيكارةً، ويأخذ يغنّي أغنيةً بذيئةً.

كان الجميع يرهبون جانبه، ولا يحبّه أحدٌ. لكم تعس في "بيت الأحداث"، حيث لم يكن سوى رقمٍ مغفلٍ، ومفروضٍ عليه الرعب، في ذلك الإطار الرهيب من القوانين المحكمة، الصارمة؛ وعندما بلغ الثامنة من العمر، ضاق ذرعًا بكلّ ذلك، فلاذ بالفرار، تحت جنح ليلةٍ دامسة الظلام، منزلقًا على مزرابٍ. ومذ ذاك لم يعهد من منزلٍ غير الشارع، أو من رفاقٍ سوى حفنةٍ من الصعاليك والأوغاد، ممّن لا يفهمون سوى لغة السكاكين! وكان الاتّحاد السوفييتيّ، في تلك الحقبة، يزدحم بأحداثٍ متشرّدين، لا منزل لهم ولا مقرّ، لا يلبثون أن يمسوا، بفعل طول التشرّد، كصغار الكواسر.

لقد طالما شحذ تشوما ذهنه، في محاولةٍ يائسةٍ لفَهم علَّة الابتسامة الرقيقة التي يقابله بها الشيخ الضئيل، والحديث المهذّب الذي يخاطبه به دوْمًا. وعلى كونه لصًّا أصيلاً، لم يتخلّ عن كبريائه، فقرّر رفض ضريبة السكّر التي كان قد فرضها عليه، وظلّ موقف الشيخ هاجسًا يؤرّقه. كان، أبدًا، يلقاه في دربه، كأنّما بفعل مصادفةٍ مدبّرة، ويأخذ في محاورته وطرح الأسئلة عليه. وهكذا علم تشوما أنّ الشيخ كان يُدعى، في عالم الحريّة، الأب ڤاليرِ، فاعترف له أنّه، هو أيضًا، يمتلك اسمًا: فجوازه يدلّ على أنّ اسمه هو نيقولا نعوموف.

ولما كان مقضيًّا على المعتقلين أن يعملوا في قطع الأخشاب، اقترح

الأب ڤـــالير على تشوما أَن يمضيا معًا إلى الشغل، فتتسنّى لهما فرصةٌ للحوار. ووافق الفتى متصنّعًا اللامبالاة، في حين كان يؤنس، في قرارة نفسه، ســـعادةً عميقةً حيال ذاك الاقتراح. وفي أَثناء فترات الاســـتراحة القـــصيرة المتاحـــة للمدخِّنين، كان الفتى يجلس على جذع شجرةٍ، قريبًا من الـــشيخ الـــضئيل. وكان ينظر إِليه خلسةً. وهو يلفّ سيكارته. وذات يومٍ سأله:

– لِمَ لا تدخّن، يا أبت، والجميع هنا يدخّنون؟

– لأنّ التدخين غير ضروريٍّ، ويمكن الاستغناء عنه، فضلاً عن أنّ الإفراط في تعاطيه يؤذي.

– ولكنّه ممتعٌ جدًّا. أَنا قد باشرت التدخين في الثامنة من عمري. وكنت، إذ ذاك، أَلتقط أعقاب السجائر من ثنايا القمامة.

– وهل وفّر لك ذلك متعةً حقيقيّةً؟

– كلاّ، بل كادَ ذلك يحملني على التقيّؤ؛ غير أَنّ رفـــاقي كـــانوا يراقبونني، متأهّبين لغَمْزِي بالسخرية، إن أَنا أَخفقت. فكان علـــيّ أن أعاند. وفيما بعد تملّكتني عادة التدخين.

– أمّا أَنا، فلم أدع تلك العادة تستبدّ بي. هذا كلّ ما في الأمـــر. فلدى تناولي سيكارتي الأولى، فكّرت أَنّه سيكون من الحمق أن أُستَعبدَ لها طوال عمري.

وعقد تشوما حاجبَيْه: فتلك فكرةٌ لم يكن يخطر له مثلها ببـــالٍ. وتنبّه فضوله. إِلاّ أَنّه كان يشعر بالحرج من نظرات الأب ڤـــالير الـــتي

تبدو وكأنّها تسبر أَعماقه من خلال النظّارتين. وذات يومٍ لم يستطع إمساك نفسه عن سؤاله:

– ماذا فعلت أَنت، يا أبتِ، ممّا يبرّر وجودك في ما بيننا، نحن الأَشرار الحقيقيّين!

– أَنا هنا يا نيقولا، بسبب إيماني بالله.

– الإيمان بالله؟ اعترض تشوما مذهولاً، أَوَأنت جاسوسٌ، إذن؟

– تلك هي، بالفعل، التّهمة التي ألصقها بي رجال السلطة، إذ كان لا بدّ لهم من مبرّرٍ للحكم عليّ.

– أَفَلسْتَ، إذن، بجاسوسٍ؟

– مطلقًا، فكلّ ما كنت أَفعله، فعلتُه جهارًا، في وضح النهار. غير أَنّ الذين يودّون قتل الله، يعدّون الإيمان به جريمةً. وهذا هو سبب وجودي ههنا.

– ولكن ما هي حرفتك الفعليّة؟

– أَنا مرسلٌ.

ومع أَن تشوما لم يدرك كُنْهَ هذه العبارة، إلاّ أَنّه، بدافع الكبرياء، تظاهر بالفهم، وعقّب:

– على أَيّة حالٍ، ليست تلك مهنةً سيّئةً. ثمّ أَسرّ قائلاً: أمّا أَنا فلصٌّ. هذه هي مهنتي، ولكنّني أؤكّد أَنني لصٌّ ممتازٌ.

وابتسم الأب قالير، وسأل:

– منذ متى تمارس هذه... المهنة؟

– لقد مارستها دائمًا، أي منذ فراري من "بيت الأحداث". بادئ الأمر كنت أسرق التماسًا للقمة العيش، ثمّ غدت لي السرقة رياضةً. إنّ خداع الناس يوفّر إِثارةً جمّةً، ويتيح لي، في كلّ مرّةٍ، أَن أَضحك ملء شدقيّ.

– وماذا عن الفترة السابقة لإِيداعك "بيت الأحداث"؟

– لم أعد أعلم. لقد كنت طفلاً صغيرًا جدًّا عندما قتلوا والدي، واعتقلوا أمّي التي ربّمَا أَفرجوا عنها الآن. ولكنّني أَخجل من البحث عنها اليوم، وأَنا على ما أنا عليه. لقد كان والداي من "أعداء الشعب".

واعترض الأب ڤالير برفقٍ قائلاً:

– الأمّ هي أبدًا أمٌّ. و لم يُحْبِبْكَ، يومًا، أَحدٌ، بقدر ما أَحبّتك أمّك، ما عدا، طبعًا، أمّ الله، التي يعكس حبّها لك حبّ الله ذاته.

وتوفّرت لتشوما مادّة تفكيرٍ كافيةٌ لشغل ذهنه حتّى المساء، لا بل سواد الليل بطوله. وأَخذ العالم المتوحّش القاسي الذي استقرّ فيه، حتَّئذٍ، يتصدّع وينهار، وراحت أَنظاره تتفتّح على آفاقٍ قشيبةٍ مجهولة. ومضى الفتى يائسًا، يسبر أَغوار ذاكرته، بعد إذ كانت، لحقبةٍ طويلةٍ مضت، "منطقةً محظورةً". ومن الغريب أَنّ ذكرى الروائح هي التي كانت الأكثر حضورًا: فشعر أمّه المنحنية فوق سريره يحاكي في عبق عطره باقةً مؤرّجةً، عندما كانت تهدهد نومه على أَنغام أَناشيدها الحانية، ولكم وَلهَ بسماع ردّاتها الطويلة الشجيّة، إِلى أن يأخذ صوتها

يتخافت شيئًا فشيئًا، فيلجأ إلى حيلةٍ أَلِفَها جميع أَطفال الدنيا، فيفتح عينيه فجأةً، وقد أوشك أَن يغفو، وكأنّه يطلب المزيد؛ وحينئذٍ يعود صوتها فيتعالى، إلى أَن ينتصر النعاس.

أمّه! لم يبقَ في ذاكرته منها سوى حزمة نورٍ وعطرٍ غارقةٍ في ضبابٍ، وصوتٍ عذبٍ ينشد ليهدهد نومه. أمّا قسمات وجهها فلا يذكر منها أَيّ ملمحٍ.

لقد أصرّ، طوال سنواتٍ، على أَن يطرد بعنفٍ من خاطره تلك الذكريات "البورجوازيّة"، التي لا تتلاءم، في شيءٍ، مع مهنة اللصوصيّة التي كان قد احترفها. غير أَنّ أَحاديث الأب ڤالير قد أشرعت صمّام الأمان الذي أتاح للذكريات أَن تتدفّق كموجٍ لا يُقاوَم، وهو مستلقٍ على سريره الوضيع في قلب الصحراء السيبيريّة. أَخذت تغشى نفسه مشاعر عجيبةٌ، قد طالما بدت له مخزيةً، كالندم، والخجل... وراح يحاصره سؤالٌ موجعٌ: أَما برحت أمّه على قيد الحياة، أم هي قد غادرت هذه الدنيا؟ وفجأةً ارتَدَتْ لفظة "يتيم" التي غالبًا ما سمعها، ولم يعرها انتباهًا، أَحجامًا غير متوقّعةٍ؛ وقد أثار كلّ ذلك غضبه، فأخلد إلى النوم.

صبيحة اليوم التالي سأله الأب ڤالير، وهو يمدّ إليه حصّته من السكّر:

– تشوما، ما بالك مقطّبًا؟

إلا أَنّ الفتى ظلّ منغلقًا على صمته المطبق، ودار على عقبه من غير أَن يحير جوابًا.

وجالت، إذ ذاك، في خاطر الأب ثـــالير، فكرةٌ نيّرةٌ:

- نيقولا، أَلا ترغب في تعلّم القراءة والكتابة؟

- وما الجدوى من ذلك؟

- سيتسنّى لك مطالعة الصحف والكتب... ومـــن ثمّ ســـيكون بوسعك الكتابة إلى أمّك.

- وما الفائدة؟ إنّها، لا ريب، قد توفّيت.

- ولكن أَنّى لك أَن تعلم؟

ومنذ ذلك اليوم، أخذا يلتقيان، عقب الفـــروغ مـــن الـــسّخَر المفروضة على المعتقلين، في زاويةٍ من الكوخ؛ ويمـــضي الأب ثـــــالير يرسم بقطعةٍ من الفحم أحرفًا على نفاياتٍ من ورق التغليف، ويـــردّد تشوما بصوتٍ خافت: "ب ا: با...". وأمسيا لا يفترقان، حتّـــى في قاعة النوم التي لم تكن سوى مجموعةٍ من ألواحٍ خشبيّةٍ منضّدةٍ بعضها فوق بعـــض "كالتوابيت"، على حدّ تعبير المعتقلين. وكم كان يعـــسر على ذوي الكروش الانزلاق فيما بينها؛ وكـــم قد اكتُشِف منهم، في الصباح. وقد بارحوا الحياة، في أَثناء الليل.

وعندما كان الجنود يهزأون بالكاهن الشيخ، غالبًا ما كان شوما الطاعون يكشّر عن نواجذه، دفاعًا عن صديقه، إلى أَن اكتسب الأب ثـــالير، يومًا، وبـــصورةٍ مباغتة، شهرةً كاسحةً، بلغت، ومنذ الوهلة الأولى، ذروةً منقطعة النظير، في المعتقل. فقد كان الجدل يدور حـــول فنّ "السمورائي"، أو المصارعة اليابانيّة. وخـــطر للمرسل الـــشيخ أَن

يدعم حديثه بشاهدٍ حيٍّ، فقذف بتشوما إلى مسافة خمسة أمتار، من غير أن يبذل أيّ جهد، وكأنّ شيئًا لم يكن؛ ونهض تشوما مذهولاً، ووثب كثورٍ هائجٍ؛ غير أنّ الأب قالير عاد فنقفه بطرف أنامله، فرماه، كالدمية، إلى مسافةٍ أبعد.

وعلى الفور انتشر النبأ، فتحلّق فضوليّو المعتقل حول المشهد، وصاح أحدهم: لا غرابة في فعلة الشيخ، وهو يبارز صبيًّا طريّ العود؛ عليه أن يثبت قدرته بالتصدّي لميتكا، الملقّب بالسنديانة.

كان الجميع يعرفون "ميتكا"، ويرهبونه بسبب قوّته الهرقلية، فقد كان بوسعه أن يرفع بذراعٍ واحدةٍ مئة كيلوغرامٍ، وكأنّه يروز ريشةً، وأن يلوي حدوة خيلٍ وكأنّه يعبث بشمعٍ.

وبلغ "ميتكا" التحدّي، فاشتقّ لنفسه سبيلاً وسط زحام الرفاق، عاري الجذع، وقد أبرز عضلاتٍ مشدودةً كالمرس المفتول، تحت جلدٍ نحاسيٍّ. وافترّ ثغر "الشيخ الضئيل" عن ابتسامةٍ خاطفةٍ، ثمّ لامس جسم الجبّار المتحدّي، بحركةٍ لا مبالية، وإذا به يتدحرج على مسافة خمسة أمتارٍ. وساد، بين الحضور، صمتٌ رهيبٌ. ثمّ توالت المحاولة مثنًى وثلاثًا وَخُمَاسًا، وتكرّرت نتائجها المدهشة، إلى أن استسلم "ميتكا السنديانة". ومنذئذٍ نعم الأب قالير، في المعسكر، بشهرةٍ مستحقّة، وأخذ الجميع يتناقلون أنّه، قبل أن يصبح مرسلاً، كان بطلاً في الألعاب البهلوانيّة، ومروّضًا للوحوش، وكانت الإشاعة، بالطبع، فريةً، ولكن كان من شأنها صون ماء وجه "ميتكا السنديانة".

ووفقًا لتقاليد المعتقلات، لم يضمر الرفاق أيّ سوءٍ للأب قـــالير، بل، على النقيض من ذلك، والوه جميعهم، في أعقاب مآتيه الباهرة. أَمّا تشوما، فقد بات يزهو فخرًا بما تمتّع به صديقه من احترامٍ رفيعٍ.

وفي الخريف أُصيب تشوما بزكامٍ خبيثٍ، وكان المعتقل يفتقـــر إلى وسائل الإسعاف، بحيث كان المرضى يتساقطون، في مطلع كلّ شـــتاءٍ، كالذباب؛ وتولّى الأب قـــالير الأمرَ بعزمٍ، وراح يغذّي "الصغير" الذي كان جسده يتلظّى من الحمّى، بالأعشاب المغليّة. ولم يكن تشوما قـــد أَلِف، يومًا، مثل هذا الحنوّ، فأخذ يتساءل عمّا قد يختفي وراءه من دوافع المصلحة. وعندما أَفلت من براثن الخطر، سأل الأب، في نبرةٍ فظّةٍ:

– ما الذي يحدوك على أَن تفعل لي كلّ هذا؟

– وماذا أَفعل لك؟ أَجاب الأب مفتعلاً الدهشة.

– ماذا؟ إِنَّك تدلّلني كمرضعةٍ.

– يا بنيّ، هذا أَيضًا من مقتضيات مهنتي.

وقطّب تشوما في محاولةٍ بيّنةٍ لإِدراك قول الأب، ثمّ أردف، إِثْـــرَ هنيهة صمتٍ:

– إذن، فاشرح لي قليلاً مهنتك العجيبة هذه.

ومـــنذ ذلـــك الـــيوم، طـــفق الأب قـــالير يشرح لتشوما مبـــادئ المسيحـــيّة، ولاسيما تلك المحبَّة المسيحيّة التي كان لها مثالاً حيًّا. ولمّا تعافى الشابّ، أَصبحا ينتهزان كلّ سانحةٍ، ليختليا في زاويةٍ مهجورةٍ. حينئـــذٍ، في كثيرٍ من الحيطة، كان المرسل الشيخ يستلّ من تحت قميصه كتابًا رثًّا مغلّفًا

في عنايةٍ جمّةٍ بخرقةٍ باليةٍ، ويقرأ، بصوتٍ خفيضٍ، مقاطع من الإنجيل. وكان تشوما يجلس القرفصاء ويصغي بكلّ كيانه، وغالبًا ما كان يتولاّه الذهول، إذ إنّ ما يسمعه يتناقض وعادات الوحش الصغير التي ألفها حتّى ذاك. وشيئًا فشيئًا، راح ضميره يستيقظ، وذكرياته تتوارد وتتدفّق... ذكَر أَنّــه كــان هناك، فوق رأس أمّه العابق بالعطر، سراجٌ أَحمر صغيرٌ، أمام إطارٍ مسودٍّ... وعندما أَسرّ للأب ڤــالير بهذه الذكرى، أَوضح له الشيخ أَنّ سريره كــان قابعًا إزاءَ "الزاوية الجميلة" حيثُ كانت تقيم إيقونة الأسرة. ثمّ أَخذ يشرح له معنى الإيقونة، تلك النافذة المشرعة على عالَم غير منظور، علامةً للقيامة، ورمزًا للأَجساد الممجّدة المغمورة بنور التجلّي.

كان تشوما يترنَّح وسط تلك الروائع التي تسحره وترعبه، في آنٍ واحدٍ. وإذا بالعالم الصلب والفظّ الذي عاش، حتَّــذ، في أَحــضانه، يهويٍ رأسًا على عقبٍ، وكأنّه يسمع صوتًا في أَعماقٍ كيانه يــصيح: "ها أَنذا حاضرٌ!"

وقد قال له الأب ڤــالير، يومًا:

– لا ريب أنّك معمّدٌ يا نيقولا، وهذا ما يساعد على فتح عينيك وأُذنيك وقلبك.

أمّا القصّة التي بلغت بتشوما ذروة البهجة، فكانت قصّة اللــصّ الصالح. فصاح، وقد شاعت على محيّاه ابتسامةٌ مُشعَّةٌ:

– أَخيرًا. ها أَنذا أَجد نظيرًا لي. أترى، أَبتِ، أَنّ يسوعك كــان يحبّ اللصوص؟

– كان يحبّنا جميعًا، ردّ الأب ڤـــالير. ومرَّةً أُخرى أَخذت تتراقص وراء زجاج نظّارتيه الصفيقَتين، شرارات متألّقةٌ. وأَضاف: إِنّك لعلـــى حقٍّ، فقد كان لدى يسوع ميلٌ خاصٌّ إلى الخطأة لأَنّهم كانوا أَشـــدّ افتقارًا إلى حبِّه ورحمته.

– إِذن، فيسوعك يحبّني؟ أأنت على ثقةٍ من ذلك؟

– مثلما أَنا واثقٌ من الأرض التي ندوسها؛ إِنّني أَشدّ يقينًا بحبّه لك من يقيني بجلوسك ههنا بإِزائي.

ولم يكن ذهن تشوما، وهو بعدُ في مستهلّ تفتّحه، قـــادرًا علـــى استيعاب كلّ تلك الأسرار، وأطرق برهةً، ثمّ استأنف متهلّلاً:

– إذن، يا أبتاه، لا بأس في أَن يكون المرء لصًّا، مـــا دام يـــسوع يؤثرنا بحبّه، ويمضي بنا إلى الفردوس.

وعاد الأب ڤـــالير يكرّر، في كثيرٍ من الأناة، شرحه لحالة اللـــصِّ الصالح. فهو عندما كان يسرق ويقتل، لم يكن يعـــرف ذاك الـــذي خلّصه، فيما بعد. كذلك شأن نيقولا، عندما كان يجهل يسوع. أمّـــا الآن فقد اختلف كلّ شيءٍ.

– عليك أَن تعلم الآن، يا نيقولا، أَنّك حين تقترف إِثمًا، فأنـــت إِنَّما تصلب يسوع.

وشيئًا فشيئًا، أَخذ جمهور الأب ڤـــالير يتضخّم. وكانت هنـــاك وجوهٌ مألوفةٌ بين من يصغون إلى شرحه للإِنجيـــل، وحتّـــى "ميتكـــا السنديانة" كثيرًا ما اندسّ ما بينهم. ولكن لم يشِ أَحد بالأب ڤـــالير.

وحلّ الربيع، ومعه حلّت فترة الصوم. وراح الأب يقرأ عن آلام المسيح ويعلّق عليها، وأخذ الاندفاع بمجامع فؤاد تشوما، فسأل في حماسةٍ:

– أَصحيحٌ، إذن، أنّه مات كي يخلّصني أَنا؟ أممكنٌ هذا؟

– أَجل، مات لأَجلك، وضرب لنا مثلاً لبذل حياتنا في سبيل إِخواننا.

وصمت تشوما، برهةً، وهو يجترّ معنى الكلمات العجيبة، ثمّ سأل، في صوتٍ خفيضٍ:

– قل لي، يا أَبتِ، هل أَنت أَيضًا مستعدٌّ لأن تبذل حياتك من أَجلي؟

أَجاب الأب ڤاليار مبتسمًا:

– بالطبع، فهذا، أَيضًا، من مقتضيات مهنتي.

وما إن أخذت الثلوج في الذوبان، حتّى تضاعف العمل في معتقل أوستيڤيميوك. وكان لا بد من بلوغ حدود الإِنتاج المفروضة، وعلى المعتقلين أَن يدفعوا إلى النهر ملايين الأمتار المكعّبة من الأخشاب التي اقتطعت في الشتاء. وكان المحكومون، رغم غذائهم الهزيل، وثيابهم الرثّة، يتخبّطون في الوحول اللزجة، ويعانون هجماتِ أَسرابٍ كثيفةٍ من الذباب الناقل للحمّيات البردائيّة. وكان عليهم أَن يقاسوا تلك الدوّامة الجهنَّميّة المتعاقبة: قرّ الشتاء القارس، وقيظ الصيف القصير اللاهب، وهم عاجزون عن التقرير أيّهما أَخفّ وطأةً.

وتميزّ مستهلّ موسم الربيع بحادثٍ هزّ المعتقل، حين أفلتت حزمةٌ ثقيلةٌ من الأخشاب، من كومةٍ أُسيء توضيبها، في أَثناء دفعها إلى النهر. وعَقِبَ ذلك صدمةٌ عنيفةٌ، وصرخةٌ، وصمتٌ... ووثب تشوما

إلى موقع الحادث، فإذا بالأب ڤـــالير ملقًى على ظهره، وقـــد حطّـــم صدرَه جذع شجرةٍ ضخمٌ، وتكوّنت عند شفتيه المنفرجتين فقّاعـــاتٌ زهريّة اللون، وشخصت عيناه واسعتين.

وتسنّى "لميتكا السنديانة" أَن يثبت قوّته الجبّارة، إذ استطاع بحركةٍ خاطفةٍ إِزاحة الجذع القاتل؛ إلاّ أنّ الأب ڤـــالير لم يقوَ على النهوض، وتدفّق من فمه دمٌ غزيرٌ.

وسارع تشوما إلى صنع نقّالة إِسعافٍ، وحرص جميع الرفاق على الإسهام في الإِنقاذ، فنقلوا الجريح إلى الطبيب الذي أعلن أن لا أمل في الشفاء يُرجى، بعد أن سُحِق الصدر والرئتان سحقًا بليغًا.

ولم يفلح توسُّلٌ أو وعيدٌ في إِقصاء تشوما عن صديقه المحتـــضر، وقد جلس القرفصاء إلى جواره، وراح يذرف دموعًا حارّةً. واضـــطرّ الحرس إلى تركه وشأنه. فهم ولو كانوا يعدّون المرسل "جاسوسًا"، إِلاّ أنّهم كان يجدون فيه نموذجًا فريدًا.

وفجأةً فتح الأب عينيه واسعتين، وقال في نبرةٍ مرتفعة الجرْس:

– اليوم هو يوم الجمعة العظيمة!

ثمّ التفت إلى تشوما الذي كان يشهق منتحبًا، وقال:

– لا تبكِ، يا نيقولا، فكما ترى، الموت ليس مصيبةً، ولا سيّما اليوم!

ورفع تشوما رأسه، وقد أثير اهتمامه، سائلاً:

– ولكن، لماذا اليوم بالذات!

– لأنّ اليوم ذكرى موت يسوع من أَجل خلاص العالم.

– إذن، فأنت... أنت أيضًا...

– يا نيقولا، ما لا تدركه الآن ستدركه فيما بعد. أمّا وقد أضحى بوسعك القراءة والكتابة، فابعث حالاً، إثر موتي، بطلبٍ إلى مجلس السوفييت الأعلى، كي يبحثوا لك عن أمّك، فهي، ولا ريب، قد أضناها بُعدك.

وكان تشوما يصغي ولا يسمع، وقد حفرت جبينه غضونٌ عميقةٌ، وفجأةً انفجر مُنْتحبًا:

– إذن، لأجلي أنت تقضي نحبك؟

وكان الأب ڤاليرِ قد عاد فأغمض عينيه، وأخذت الحشرجات التي تمزّق صدره المحطّم، تتسارع وتيرتها، ثمّ أعقبها صمتٌ مطبقٌ. فانخرط تشوما في نحيبٍ يفطّر الأكباد. وحاول الرفاق والحرس، عبثًا، إبعاده، ولكنّه أبى أن يفارق، لحظةً واحدةً، من كان له أبًا وصديقًا، وظلّ قابعًا القرفصاء إلى جواره، مستغرقًا في تفكيرٍ عميقٍ، في حين انبعث من الميت سلامٌ هادئٌ عريضٌ، وبدت قسمات وجهه الرقيق مشعّةً بنورٍ سماويٍّ، فكان حتّى عتاة المعتقلين، عندما يقبلون لمشاهدته، يرسمون على ذواتهم تلقائيًّا وبارتباكٍ، إشارة الصليب. وينزعون قبّعاتهم.

دُفن المرسل في صباح اليوم الثالث، وأدرك كلٌّ من في المعتقل، بحَدْسٍ جماعيٍّ عجيبٍ، أنّ عيد الفصح حلّ في ذلك اليوم. فوقفوا جميعهم في خُشوعٍ واضطرابٍ، عند الضريح الذي حُفِر على عجلٍ ليضمّ جثمان الأب ڤاليرِ في رقاده الأبديّ. وكفّ تشوما عن البكاء،

وفيما كان الرفاق يردمون الحفرة، اعتلى حافّةً مرتفعةً تحيق بالمعتقل، وصاح بملء قوّة رئتيه:

– المسيح قام!

وجاءه الردّ، متردّدًا أوّل الأمر، ثمّ هادرًا كالرعد، اشترك فيه جميع من في المعتقل، حتّى الحرّاس أنفسهم:

– حقًّا، حقًّا قام!

وسرت النعمة في معتقل أوستيـــقـــيميوك، وحلّ فيـــه، فجـــأةً، فصحٌ حقيقيٌّ.

وفي اليوم نفسه، انتهز نيقولا نعوموف الفراغ المتاح له، بمناســبة الفصح، فجلس إلى صندوقٍ فارغٍ، وعلى ورقةٍ بيضاء، فوق صـــحيفةٍ قديمةٍ مجعّدةٍ، راح يخطّ أوّل رسالة في حياته، جاهدًا في نسخ أَحـــرفٍ مطبعيَّةٍ ورصفها بحيث ينظم منها أَلفاظًا... متكاملةً. فالأب ڤـــالير كان قد لقّنه القراءة، أمّا الكتابة فليست بالأمر اليـــسير، والوقـــت في سبيل تعلّمها لم يكن متوفّرًا. وقد كتب نيقولا، بيدٍ مرتبكةٍ:

"إلى مجلس السوڤـــييت الأعلى: إنّ لي من العمر ستّ عشرة سنةً، وأَنا أَبحث عن أمّي. كنت قد أُقصيتُ عنها في الرابعة من سنّي، وهي، ربّما، ما زالت على قيد الحياة، وأنا أرغب في رؤيتها. أيّهـــا الرفـــاق جدوها لي وأبلغوني، فقد بقي من مدّة اعتقالي ثلاثة أَشهرٍ. تحيّاتي".

(نيقولا نعوموف)

وفي يوم الفصح هذا، في إِحدى مدن المقاطعات الروسيّة، كانت

امرأةٌ لا تزال شابّةً، ملتحفةً بثياب الحداد، وقد خدّد العذاب قسمات وجهها، تصلّي بحرارةٍ أَمام إِيقونة سيّدة قازان. وكان القدّاس قد أشرف على نهايته، في الكنيسة الضيّقة التي كادت تتفجّر من الازدحام. وأَطلق الكاهن الشيخ، مرّةً أُخرى، صيحة الفرح التي لا تني تتردّد في الطقوس الفصحيّة: "المسيح قام"، وردّ عليه الجمهور بالإِجماع: "حقًّا، حقًّا قام!"

وعندما أخذت الكنيسة تقفر، شيئًا فشيئًا، من روّادها، وحدها المرأة الملتحفة بالسواد كانت قد فقدت معنى الزمن، وقد شخصت أَبصارها بوجه أمّ الله العذب، واستغرقت في صلاةٍ صامتةٍ لا تنتهي، ولطالما صلّت على هذا النحو، وبثّت همومها للمعزّية، واهبةِ كلّ نعمةٍ، وطالما ردّدت أدعية "صلاة المدائح" في تمجيد كلّية الرأفة، وتشبّثت، في عنادٍ، بالرجاء، بفضل تلك الثقة التي لا تقهر المستمَدَّة، يومًا إِثر يومٍ، من الصلاة أمام الإِيقونة.

اِثنتا عشرة سنةً كانت قد تصرّمت منذ ليلة الرعب تلك التي رأت فيها زوجها يُصرع أمام عينها، ووحيدها ذا الأربعة أعوامٍ ينتزع منها عنوةً. ومنذئذٍ لم ترَ نيقولاها الصغير. أما زال حيًّا يُرزق، أم عليها أَن تبحث عنه وراء عتبات الموت؟

حقيقةٌ واحدةٌ كانت منها على يقينٍ: إنّ والدة الله كلّية السلطان على قلب ابنها، وهي تعرف العذاب القادر، أكثر من أيّ عذابٍ سواه، على طعن قلب امرأةٍ، فلقد كانت واقفةً عند أَقدام الصليب. إِلاّ أنّ

"المسيح قام" وانقلب استشهاده مجدًا. ووجدت نفسها تتمتم: "يـــا أمّ إلهي فائقة الطهر والقداسة، اليوم هو عيد الفصح. وها أنـــذا أُعَـــانِي الضَّنْك والضّنى. لقد نهض ابنك من القبر، أمّا أَنا فأَجهل حتّى هل ابني ما انفكّ حيًّا! فارحميني، يا سيّدة قازان".

وفجأةً أطلقت صرخةً، واندفعت إلى الأمام كي تتثبّت ممّا تراه في الظلّ الداكن الذي غمره الضوء بغتةً، حين شعّ وجه والدة الله بالنور، وارتسمت على قسماته ابتسامةٌ تندّ عذوبتها عن كلّ وصفٍ. كم من الوقت استطالت تلك الرؤية؟ لم تستطع المرأة، قطّ، أَن تجيـــب علـــى سؤال الكاهن بهذا الشأن. فهي لم تكن واثقةً إلاّ من حقيقةٍ واحـــدة: لقد ابتسمت لها العذراء النقيّة، وإذن، فـــإنّ ابنـــها مـــا زال حيًّـــا، وسيُستجاب طلبها.

أمّا رسالة تشوما الطاعون الذي ارتدّ فأصبح نيقولا نعوموف، فقد سلكت جميع الدهاليز الإداريّة، إلى أَن انتهت إلى سجلاّت "الأمّهـــات الباحثات عن أبناء مفقودين أو تائهين" من جرّاء الحرب، أو أعمـــال القمع البوليسيّ.

من العسير تحديد تاريخ اللقاء بين الأمّ وابنها. ولكن من المؤكّـــد أنّه قد تمّ في الوقت الملائم. ومن بعده، لا نعلم شيئًا عن أَبطال القـــصّة الذين باحوا، هم أنفسهم، بجميع الوقائع التي أوردناها. ولا عجـــب، فالناس السعداء لا قصص لهم.

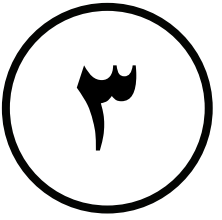

٣

الأيقونة الخالدة

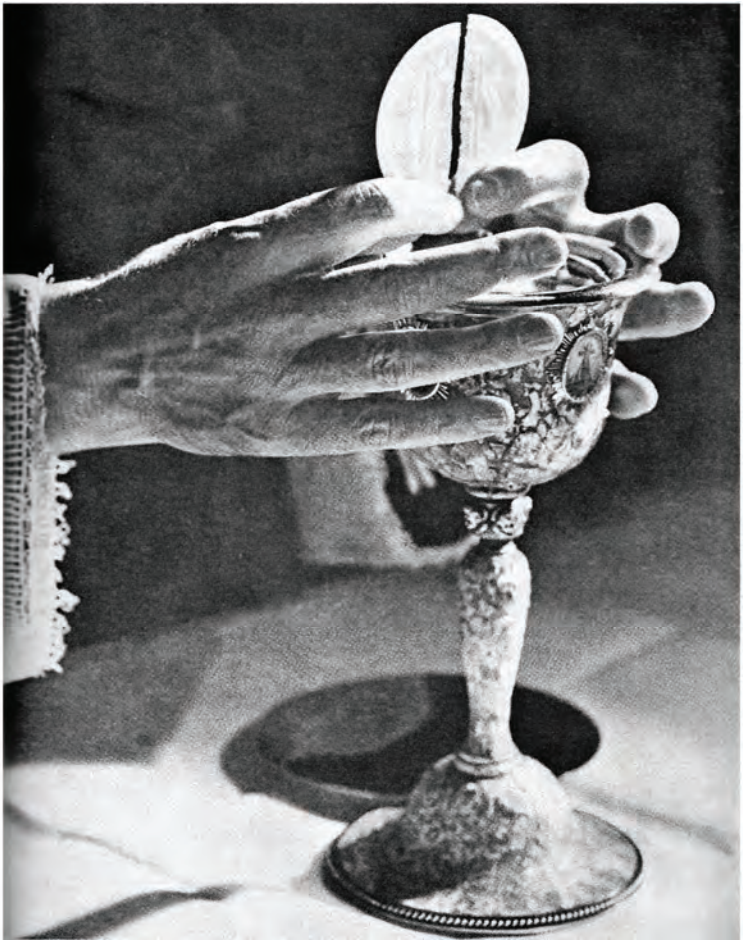

الإيقونة الخالدة

كان الجوّ مكفهرًّا، وصمت ليلة الميلاد، المنقطع النظير، يهبط بتؤدةٍ على الحقول، وعلى نُتَف الثلج المتّسخة، وعلى الغابة القاتمة المستقيمة التي كانت تسدّ الأفق وتداهمها أمواج الغيوم المتلاحقة المتسارعة باتّجاهنا.

وكان الرذاذ البارد ينفذ حتّى عظامنا المقرورة، ونحن نجهد في حثّ الخطى. وشدّ الأب أنسيلم على رأسه قلنسوة معطفه المهترئ، وتابع سيره، وعيناه شبه مغمضتين، غير حافلٍ بتحرّي الطريق أمامه، وشفتاه في حركةٍ رتيبةٍ مطّردةٍ. وكنتُ أضيق ذرعًا بخشوعه وتقواه.

ودنونا من الغابة التي بدت حافلةً بالمخاطر؛ وبات جناح الصيد على مسافة ثلاثة كيلومتراتٍ. كنت أعرف، عن ظهر قلبي، كلّ المسالك والمنعطفات، ولا أخشى، بحالٍ، أن أضلّ سبيلي. ومع ذلك، كنت أرتعد، متسائلاً، في قلقٍ، هل كنّا سنصل في الوقت الملائم.

وسرعان ما طوتنا الأشجار الكثيفة، حانيةً حاميةً، وغمرنا جوّها

الفاترِ العذب كالبلسم. وعند المنعطف الأخير، توقّف الأب أنسيلم فجأةً، وسبر الليل الذي ما انفكّ سواده يتكاثف، وسأل:

– كم بقي لنا حتّى نصل؟

– نحو ربع ساعة. ولكنّ لكلّ دقيقةٍ شأنها الخطير. فلم يكونوا يتوقّعون له العيش أكثر من أربعٍ وعشرين ساعةً. لقد كان مثقّبًا بالرصاص كالغربال، وليس من يعالجه، وإنّي لأعجب كيف لم يلقَ نحبه في الحال. وإنّه لمن حسن الطالع أنّ زوجة حارس الغابة تلمّ بالروسيّة، وأنّ ابنها جانو قد عثر عليك، في غمرة تهيئة الميلاد.

– حسن الطالع هذا، إن هو إلاّ العناية الإلهيّة. فما علينا إلاّ أن نوكل إلى المعلّم أعمالنا وأيّامنا، في ثقةٍ، حتّى تزدهر العجائب في طريقنا. فلولا سيْر حذائي الذي كنت منهمكًا في إصلاحه، لما وجدني جانو الفتى... هل هذا هو المكان؟

لقد كان ضوء فانوسٍ خافتٍ يتراقص في جوف الأشواك المتشابكة، وما هي إلاّ خطواتٌ، حتّى قرعنا بابًا متينًا، مثبتًا في إطار جذوع شجرٍ غير مصقولة. ولا ريب أنّ زوجة حارس الغابة كانت تترقّبنا، إذ هي بادرت إلى فتح الباب، قائلةً:

– تبارك الله، يا أبتاه، فإنّه ما زال على قيد الحياة.

وولجنا الغرفة الوحيدة المزدانة بقرون الأيائل وغنائم الصيد، والتي كان يرقد في زاويتها الشماليّة رجلٌ مضمّد الرأس، متشنّج القسمات، ينمّ وبر لحيته الذي طرّ حديثًا عن شبابٍ طريّ العود. وما إن سمع

الباب يُفتح حتّى شخص بنظره، وافترّت شفتاه ببسمةٍ كشفت عن آثار دمٍ متجمّدٍ ملتصقٍ بزوايا فمه، وقال في تأثّرٍ: لم تخدعيني، يا أمّ الله، فها هوذا! ما أَطيبك!

وخلع الأب أَنسيلم معطفه المشبع مطرًا، وأَلقى به أَرضًا، ودنا من الجريح قائلاً، بلهجةٍ روسيّةٍ سليمةٍ خاليةٍ من أيّة لكنةٍ:

– أُمّ الله وفيّةٌ، يا بنيّ، وها أَنذا في خدمتك. ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟

– أُدعى أندروشا، يا أبتاه، وأنا آبى أن أموت ميتة الكلاب.

– لا أحد يموت ميتة الكلاب. إنّ نفسك خالدةٌ، وقد دفع المخلّص ثمنها غاليًا.

– وإذن، يا أبتاه، أودّ أن أكون كالذين يؤمنون، مسيحيًّا حقًّا.

– هل أنت معمّدٌ؟

– كلاّ.

– هل تعرف كيف تصلّي؟

وشاعت بسمةٌ رائعةٌ على محيّا الفتى، الذي ردّ بحماسةٍ:

– أوه! في هذا المجال، أَنا أُصلّي دائمًا.

وأمسكت زوجة حارس الغابة بيدي، وأَجلستني إلى جوارها، فوق كيسٍ مليءٍ بالبطاطا وغير مريحٍ، وكان فضولي مشحوذًا إلى حدٍّ بعيدٍ، فسألتها: "أَين وجدته؟" فوضعَتْ إِصبعها على فمي، وهمست: "في ما بَعْد". لقد كان الجيش السوفييتي يواصل هجومه، وكانت المعارك الأخيرة

قد احتدمت، لأيّامٍ قليلةٍ خلت، في تلك المنطقة. ونظرتُ إلى المرأة شـــزْرًا، فأدهشني جدّها المهيب المتعارض مع ما عهدته فيها، منذ طفولتي، من مرحٍ ومَيلٍ إلى الثرثرة. وبغتةً تبيّن لي أنّ ذلك الكوخ كان قد تحوّل إلى كنيـــسةٍ حافلةٍ بحضورٍ غير منظورٍ، وران عليّ هذا الشعور بقوّةٍ زعزعت كياني.

في تلك الأثناء، كان الحوار بين الأب أنسيلم والجريح، ماضيًا على خير وجهٍ، بحيث بتّ أتساءل هل وضعُ الفتى المصاب في مثل ما كنت قد ظننتـــه من سوءٍ. فصوته الذي، قبل لحظاتٍ، كان يكاد لا يسمع، قد غدا جهـــورًا يتردّد له، في أَرجاء الغرفة الضيّقة، صدًى رنّانٌ فريد الجرْس؛ وكلّ شيءٍ، من حولي، كان يرتدي حجمًا قشيبًا؛ وبدا لي أنّني قد رحلت خارج الزمن، قريبًا من الضفَّة الأُخرى التي نحوها نبْحر جميعنا. ومن جديدٍ أصغيت إلى الكاهن:

– إن كنت تصلّي، يا أندروشا، فهذا يعني أنّك مؤمنٌ. ما الـــذي تعرفه عن الله؟

– أعلم أنّه يسكن فيّ، وألمسه؛ إنّه يكلّمني، فأجيبه.

هل كان يهذي؟ لقد كانت عيناه جاحظتين، تحدجان الكـــاهن بقوّةٍ متزايدة. وكان يبدو وكأنّه يروز كلّ لفظةٍ، ينتزعها من صـــمت هوّةٍ لا يُسبر لها غورٌ، وأسلوب تعبيره يتّسم بشيءٍ من الاضـــطراب. فمن الواضح أنّه لم يألف الأَحاديث الدينيّة.

وكان الأب أنسيلم يتفرّس فيه بنظرة صقرٍ، إلاّ أنّه فجـــأةً جثـــا أمامه، قائلاً:

– لا تجهد نفسك. إنّني أسمعك.

لم يكن، ثمّ، اعترافٌ، وبالتالي لم أَرَ نفسي مضطرًّا لسدّ أُذنيّ، كما كنت أَفعل في حالاتٍ أُخرى، ومع محتضرين آخرين. وكنت أقوم، في هذه النوبة، بمهامّ دليلٍ للأب أنسيلم الذي كان يجهل المنطقة، في حين كنتُ أنا، بفضل خبرتي الكشفيّة، ملمًّا بكلّ طريقٍ ودربٍ، وبجميع التشعّبات التي تشقّ الغابة الفسيحة.

ولبث أَندروشا جامدًا، مغمض العينين، ولولا صفير تنفّسه المتسارع لظننته قد قضى نحبه. في غضون ذلك، كان الأب أَنسيلم يصلّي، صامتًا. وركعت زوجة حارس الغابة، فحذوت حذوَها.

وبغتةً فتح أندروشا عينيه الواسعتين المتألّقتين، وبدا وكأنّ نفسه كلّها قد التجأت إلى نظره المثبت في عيني الأب أنسيلم، في مثل توسّلٍ صامتٍ. واستأنف كلامه المتقطّع بجهدٍ واضحٍ:

– إنّه هنا، على صدري. لقد حملته، وكأنّني أحمل كنزًا، وما انفككت أسأل أمّ الله إعادته إلى كاهنٍ. وها هي ذي قد لبّت سؤالي.

خُيّل إليّ أنّه يهذي. غير أنّ الأب أنسيلم لم يكن يشاطرني هذا الرأي، إذ ما كاد أندروشا يفرغ من التلفّظ بعبارته الأخيرة حتّى ارتعش بشكلٍ واضحٍ، ثمّ، في كثيرٍ من الرفق، رفع الغطاء الذي كان يحيق بالجريح، وأزاح قميصه المضرّج بالدماء، ووضع يده على ما يشبه كيسًا صغيرًا مثبتًا بخيطٍ غليظٍ في عنقه. وسأل بصوتٍ خفيضٍ:

– أهذا هو؟

– أجل، إنّه هو. شكرًا لك، يا أمّ الله.

وقطع الأب أنسيلم الخيط بسكّينه، وتناول الكيس، ودنا من المنضدة، وأزاح الدبابيس التي كانت تضمّ زوايا القماش الأربع، ثمّ هوى على ركبتيه، بكلّ ثقله. وقفزتُ إلى جواره، فإذا في المنديل قبضةٌ من قربانات ملطّخة بالدم.

وكان أندروشا يراقبنا باهتمامٍ. وعندما لحظ ذهولنا، سأل:

– ما هذا؟

وأمرنا الأب أنسيلم بحزمٍ:

– ابقوا هنا وصلّوا.

وبالفعل كانت زوجة حارس الغابة جاثيةً خلف الكاهن، مكتوفةً اليدين، مغرورقة العينيْن. أمّا أنا فكانت أنظاري ناشبةً بقطعة القماش المضرّجة بالدم، لا أقوى على انتزاعها عنها.

وكرّر الجريح سؤاله:

– ما هذا؟

ولكنّ الكاهن لم يردّ، بل ظلّ راكعًا ساجدًا أمام القربانات الملطّخة بالدم. وبغتةً أقلقني صمته، وداهمتني الشكوك. فمن أين جاءت تلك القربانات، وهل هي مقدّسةٌ حقًّا، طالما أنّ أندروشا كان يجهل طبيعة ما يحمله على صدره؟ وأخيرًا، سأله الأب أنسيلم.

– قل لي، يا صغيري، من ذا الذي سلّمك هذه الوديعة؟

– كاهنٌ عهد إليّ بتسليمها إلى كاهنٍ. وكم قد خشيت ألاّ أستطيع أداء الأمانة.

كان يلهث، وينعقد العرق على جبينه قطراتٍ كبيرةً. وبصوتٍ متهدّجٍ، وعلى فتراتٍ راحت تتباعد شيئًا فشيئًا، استأنف قائلاً:

"حدث ذلك في لقيف، حيث كنّا قد أقمنا معسكرًا. وقد انطلقتُ، ذات صباحٍ، أتنزّه. كان محظورًا علينا الابتعاد عن الموقع، ولكن، على مقربةٍ، كانت أَشجارٌ وخميلةٌ، وعبر طريقٍ مصعّدة، وصلتُ إلى كنيسةٍ تنشر عليها الأشجار المحيقة ظلاًّ قاتمًا. وأمام الهيكل كان كاهن يرتدي ثيابًا بيضاء، يتحرّك ويتكلّم بصوتٍ خافتٍ، بحيث لم أفهم من كلامه شيئًا. ومع ذلك غمرني شعور بالارتياح وأفعم قلبي الفرح، فجثوت في ركنٍ قصيٍّ من الكنيسة، ورحت أردّد صلاة يسوع: "أيّها الربّ يسوع، ارحمني...". جدّتي هي التي كانت قد لقّنتني تلك الصلاة، وقد قضت نحبها وأنا طفلٌ، فلم أتعلّم أيّ شيءٍ آخر.

"لم يكن، في الكنيسة، سوانا أنا والكاهن. وبعد أن فرغ من القدّاس، جاءني مستفسرًا عن سبب وجودي هناك. فأجبته إنّني كنت أتلو صلاة يسوع، وأستمدّ منها سعادةً جلّى. وسألني هل أنا مسيحيٌّ، فأجبت بالنفي، فأنا لم أكن معمّدًا، إذ إنّ والديّ كانا حزبيّين لا دينيّين. حينئذٍ قال لي الكاهن: "إن كنتَ راغبًا فسأعمّدك، ولكن عليك، أوّلاً، أن تعرف الربّ يسوع الذي خلّصنا بموته على الصليب، وبقيامته من الموت.

"ومذ ذاك، غدوت أُصعّد، كلّ يومٍ، لكي أرى الكاهن على الهيكل، من زاوية الكنيسة حيث كنت أَجثو. وقد أبلغني أنّ تلك الكنيسة تحمل اسم "الحكمة المقدّسة".

"لم أكن أُدرك جميع كلماته، فهو لم يكن يجيد الروسيّة، ولكنّ جوهر حديثه لم يكن خافيًا عنّي. وكان قلبي يضطرم حبًّا ليسوع، ذاك الذي بادرني بحبّه.

"في المعسكر، كانوا يسخرون منّي عندما كنت أنقل إليهم ما كنت أتعلّمه. وغالبًا ما كان يحدث قصفٌ مدفعيٌّ. ولكنّنا كنّا متوارين تحت الأشجار.

"وذات صباح، لم يرتدِ الكاهن زيَّه الأبيض و لم يصعد إلى الهيكل، بل جاءني مباشرةً، وقال: "يا أندروشا، لقد وشوا بي، وسيتمّ اعتقالي. لذلك أرجوك أن تمضي فتخطر راهبات القدّيس جورج. وإنّي سأوكل إليك كنزًا خطير الشأن، تنفذه إليهنّ، فهنّ بعد الآن سيفتقرن إلى كاهنٍ. ستقول إنّك قادمٌ من "الحكمة المقدّسة" وإنّك مُؤْتَمَنٌ من قبل الأب ستانسلاس. وإن لم يتسنّ لك الوصول إليهنّ، فأعطِ هذا الكنز إلى كاهنٍ، واذكر جيّدًا أنّه لا يسوغ إعطاؤه إلاّ إلى كاهنٍ. وعندما ستحمل هذا الكنز، فإنّك ستحمل الربّ يسوع...". وقد استفسرته عمّا كان يشير إليه بكلامه هذا، ولكنّه لم يتّسع له الوقت لكي يفسّر لي، بل بادر إلى فتح صندوقٍ على الهيكل، وأخرج منه كيسًا صغيرًا موشًّى، ودفعه إليّ قائلاً: "فرّ مسرعًا"، فقد كنّا نسمع وقع أقدامٍ تتّجه نحونا. وقفزت بين الأشواك، وبعد هنيهةٍ، رأيته يخرج من الكنيسة بصحبة رجالٍ في زيٍّ مدنيٍّ. وكانت تلك آخر مرّةٍ لحظته فيها. ومساءَ ذلك اليوم، في المراحيض حيث لم يكن أحد يراني، فتحت الكيس الموشّى، فألفيت هذه المستديرات البيضاء التي

أوكلها إليّ الكاهن. وأردت أن أمضي إلى الراهبات، تنفيذًا لطلبه، ولكن لم يكن متاحًا لي هجر المعسكر، وفي الغد بارحنا المنطقة كلّها. وذكرت وصيّة الكاهن: "إن لم تُعطِ هذا للراهبات، فعليك أن تعطيه لكاهنٍ". غير أنّني لم أكن أَلقى أيّ كاهنٍ، فظَلَلْتُ أتوسّل إلى أمّ الله لكي تهيّئ لي مقابلة أحدهم. وها إنّك ترى كيف هي استجابت لتوسّلي، بما أنّك كاهنٌ!"

– وما الذي فعلته، يا أندروشا، بالكيس الموشّى الذي كان يضمّ هذه القربانات؟

– لقد ألقيت به، إذ كان الرفاق في أثناء الاستحمام فضوليّين راغبين في الوقوف على محتواه، إذ إنّه كان، أبدًا، مدلّى في عنقي. وحينئذٍ أَخذت منديلي ووضعت فيه هذه المستديرات، وثبَّتُّ أطرافه بالدبابيس، لكـــي لا أفقد منها شيئًا. ومذ ذاك تركني الرفاق وشأني، ولا سيّما أنّنا، منذ الهجوم الجديد، لم نعد نتعرّى. وحيثما كنّا نحطّ الرحال، كنت أبحث عن كاهنٍ فلا أجد، ولم يكن بوسعي المضيّ بعيدًا. فكنت أسأل أمّ الله ألاّ تـــدعني أموت قبل أَداء مهمّتي، تنفيذًا لطلب الأب ستانسلاس.

كان صوت أَندروشا يزداد تهدّجًا وخفوتًا، ومع ذلك، يـــسعني التأكيد أنّني أكرّر، بالحرف، كلّ أقواله. وأخيرًا، صمت وأطبق جفنيه. ثمّ فتحهما واسعَيْن، وسأل للمرّة الثالثة:

– ما هذا؟

وارتعش الأب أنسيلم، كمن يخرج من حلمٍ عميقٍ، وعوضًا عـــن الإجابة طرح سؤالاً جديدًا، أثار، في تلك اللحظة، سخطي عليه:

– يا أندروشا، عندما جُرِحتَ، لَمَ لم ينقلوك إلى المستشفى؟

– لو هم نقلوني لانتزعوا هذا منّي، ولما تسنّى لي، أبدًا، أن أقابل كاهنًا. كانت الطائرات قد أغارت علينا بعنف، وفي أمواجٍ متلاحقةٍ. وكان، ثمّة، من الجرحى ما لم يسعهم جمعهم كلّهم.

– وأنت؟

– لقد لبثت لا أُبدي حركةً، فظنّوني ميتًا.

– وبعدئذ؟

– بعدئذٍ ذهبوا، وبقيت مكاني يفعم الفرح قلبي، وأيّ فرحٍ. كان شيءٌ يهمس في داخلي أنّني سأقابل كاهنًا. كنت أتوجّع، ولكنّني كنت فرِحًا. فإن كان جسمي هو ملك وطني، إلاّ أنّ نفسي هي ملك الله. وفي المساء عثرتْ عليّ هذه المرأة الطيّبة، وجاءت بي إلى كوخها. وحينئذٍ قال له الأب أنسلم بصوتٍ جهوريٍّ:

– اعلم، إذن، يا أندروشا أنّك حملت فوق قلبك، طيلة هذه الأيّام، الربّ يسوع؛ لقد كان حبّه لنا من العظمة بحيث أراد أن يصير خبزًا يغذّينا، وهو مختبئٌ في هذه القربانات. هل تؤمن بذلك؟

وأشرقت بسمةٌ رائعةٌ على محيّا الفتى الذي أجاب:

– بالطبع أؤمن. وكنت أشعر فعلاً أنّي أحمل كنزًا، وكان، ثمّة، ما يدفعني ليلَ نهار إلى تلاوة صلاة يسوع، فيشيع الدفء في قلبي. كنت على يقينٍ من أنّ أمّ الله ستستجيب لدعائي.

– هل ترغب يا أندروشا في أن أعمّدك؟

– أوه! بالتأكيد.

لم تكن الظروف تتّسع لهدر دقيقةٍ واحدةٍ. فقد كان شحوب الفتى المتزايد، والحشرجة التي تمزّق صدره نذيرًا بِدُنُوّ أجله. وحـــدَهُ نظَـــرُهُ المتألّق على نحوٍ لا يُصدّق، كان يشهد ببقائه على قيد الحيـــاة، حيـــاةٍ فزعت إلى قمّة روحه؛ وقد أَضاف بحرارةٍ:

– أوه، أجل، أُريد أن أعتمد.

والتفت الأب أنسيلم إلى زوجة حارس الغابة التي كانت تمدّ إِليـــه وعاءً مليئًا بالماء، وقال:

– أُعمّدك، يا أندريه، باسم الآب والابن والروح القدس.

ثمّ أَضاف مؤكّدًا كلّ مقطعٍ من كلامه:

– والآن، يا بنيّ، سأعطيك ذاك الذي حملته وحافظت عليه، طيلة هذه الأيّام، خبز الحياة، الذي سيستقبلك، عمّا قريب، في دياره. هـــل تؤمن أنّه موجود هنا، في هذه القربانات؟

حينئذٍ حدث أمرٌ غير متوقّعٍ، إذ انتصب أندروشا جالسًا، وضـــمّ يديه، وهتف:

– إنّني أؤمن بكلّ يقينٍ، أَعطِنيه في الحال.

وأَخذ الأب أنسيلم قربانةً، واستطعت أن أتبيّن من حيث كنـــت جاثيًا أنّها كانت مضرّجةً بالدم، ودنا من الجريح، الذي كانت عينـــاه تتألّقان مثل نجمتين، وناوله...

حينئذٍ ارتمى الفتى بكلّ ثقله على الفراش، وأطبق عينيه إلى الأبد. وكنّا راكعين حابسين أنفاسنا. وتوطّد فيّ الشعور الذي راودني لـــدى

ولوجي الكوخ، فقد كان العالم اللامرئيّ يحيق بنا، بحضورٍ يسمو، بما لا يقاس، فوق أبعادنا المحسوسة.

وبعد هنيهةٍ، جسّ الأب أنسيلم نبض أندروشا، ثمّ نهض، من غير أن ينبس بكلمة، ورسم إشارة صليبٍ واسعةً، وقال:

– فلنصلِّ، فهو الذي سيحرسنا، الآن.

ثمّ جثا من جديدٍ، وبعنايةٍ فائقةٍ، لملم القربانات، وطوى المنديل، وأَثبته بالدبابيس ببطانة سترته، والتفت إلى زوجة حارس الغابة، وقال:

– لا يسعني التلكّؤ. فشيّعيه كما يليق بمسيحيٍّ.

وطالعنا وجهها الذي غمرته العبرات، وهي تقول:

– أيّة نعمةٍ حلّت على هذا البيت! أَيّة نعمةٍ!

كان علينا العودة قبل حلول موعد منع التجوّل. وكان الوقت يطاردنا، فحثثنا الخطى، فيمَا أصابع الأب أنسيلم كانت تنساب فوق حبَّات مسبحته، وقد غرز قبّعة معطفه على رأسه، اتّقاءً للرذاذ المتساقط.

وعلى مقربةٍ من القرية، التفت نحوي، وأَعلن بصوتٍ مرتفعٍ:

– كيف يقوى بعض الحمقى على الارتياب بأنّ النفس هي، بالسليقة، مسيحيّة، وكيف يقابلون بالشكّ هذه الإيقونة الخالدة المحفورة في كلّ نفس، على غرار يسوع، إيقونة الله اللامرئيّة؟ هل تفهمني؟

– أجل، يا أبتِ.

لم أستطع أن أقول مزيدًا، إذ كان التأثّر آخذًا بخناقي.

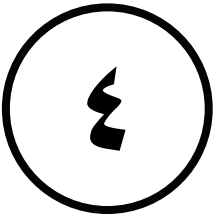

٤

المسيح بالريدنكوت

рскïа. Прест.
ïйс. Х
ЦЫ.

المسيح بالريدنكوت

ذاك هو عنوان مسرحيَّةٍ رفيعة المستوى دُعي إلى مشاهدتها سكّان موسكو، في دعاوةٍ صاخبةٍ، وقد برز في لوحة الإعلان عنها، التي غطّت الجدران، اسم الممثّل الذي سيؤدّي دور المسيح، وهو روستوڤتشيف الذائع الصيت، والحزبيّ الملحد، المناضل.

ليلة الافتتاح، كان المسرح الوطنيّ مكتظًّا، والجمهور، مع جهله لفحوى الموضوع، كانت تحدوه غريزةٌ مبهمةٌ. أَوَليست الشتيمة، أحيانًا، أَفضل من صمتٍ كصمت القبر؟ ولحظةَ رفع الستارة، كانت مشاعر متباينةٌ تعصف بجمهور المدرّج الجسيم، مشاعر تنطوي على مزيجٍ من فضولٍ، أو أمل مبهمٍ، أو حقدٍ أعمى، أو رغبةٍ في التظاهر بمسايَرة الحكم؛ في حين كان طابور المتلكّئين ما زال طويلاً أَمام شبّاك التذاكر، فعلى أيّ حالٍ، لن يظهر روستوڤتشيف إلاّ في الفصل الثاني.

كانت افتتاحيّة المسرحيّة تفضح مساوئ الدين، في معزوفةٍ مهترئةٍ باليةٍ، بعد خمسين سنةً من الدّعاوة الوحيدة الاتّجاه، إلاّ أنّها، في تلك

الليلة، كانت تكتسب طعمًا فذًّا، وبروزًا متميّزًا، بفضل إعدادٍ مسرحيٍّ فخمٍ، وتمثيلٍ رائعٍ يقوم به أَفضل ممثّلي موسكو. وليس من اليسير الإفلات من أسْر الإقناع المنبعث من مشهدٍ يسيطر، ولو بشكلٍ عابرٍ، على اهتمام الجماهير.

ووسط تلك اللجّة السوداء، آلافٌ من الشبّان كانوا يتابعون، باهتمامٍ بالغٍ، تسلسل حبكةٍ محكمة الإخراج. كم منهم كان، في سرّه، يعاني الضيق؟! ثمّ أَوَلم يكن، ثمّةَ، رجالٌ ونساءٌ يتمتمون في أعماقهم صلواتٍ صامتةً؟

في منتصف المسرح، يظهر مذبحٌ، في جوّ محرابٍ، ورفع الستارة يوحي بفتح الإيقونستاس على قدس الأَقداس. ولكن سرعان ما يهوي كلّ شيءٍ إلى مسخٍ كاريكاتوريٍّ يتناول أَدقّ التفاصيل. فالمذبح يوحي، بما لا يدع للريبة مجالاً، بمقصفٍ، والصليب الذي يرتفع فوقه مصنوع من زجاجات الجعة والفودكا، والأَرض، عنده، مكسوّةٌ بشظايا الزجاج المحطّم، وبمخلّفات مأدبةٍ ماجنةٍ.

من اليمين ومن اليسار، كان يخرج من الكواليس، بخطًى محكمة الاختلال، كهنةٌ ملتحون، منتفخو الكروش، وقد تَعْتَعهم السُّكْر، ينظرون إلى القاعة شزْرًا، ثمّ يشرعون في تمثيل دورهم الرسميّ، دور استغلال الجهّال والحمقى، مُغرقين في الانحناء والسجود، مكتوفي الأذرع، شاخصين إلى السماء، وهم يدندنون بأَصواتٍ مخنخنةٍ، ويمسخون التراتيل المقدّسة.

ثمّ تداهم المسرح راهباتٌ، وكأنّهنّ مومساتٌ، يؤدّين حركاتٍ تقويّةً بإيماآت تثير السخرية، وبأسلوب فاجرٍ، وقد بدا عليهنّ السكر. ويردّدن، هنّ أيضًا، أغاني فاحشةً فاسقةً على نغمات التراتيل الدينيّة.

وينتهي الفصل الأوّل برقصةٍ حافلةٍ بالنشوة، حول المذبح.

هذه هي، إذن، خلاصة ما أنتجته المسيحيّة، بعد عشرين قرنًا، فما رأي مؤسّسها؟

ويحبس المشاهدون أنفاسهم، ترقُّبًا لرفع الستارة على الفصل الثاني، حيث يلعب ألكسندر روستوفتشيف دور المسيح. فالرواية الهادفة التي يتعيّن على مواهبه إنجاحها، بعيدة المرامي، إذ يتوجّب عليه، مرحليًّا، وبفضل مأساويّةٍ حادّةٍ، أن يوقظ وعي الحضور، ويثبت لهم فشل المسيحيّة. وليست ذريعته إلى ذلك، التهجّم المباشر على شخص يسوع الناصريّ، فالشتيمة المقذعة أقلّ جدوى من التسلّل خلسةً إلى القلاع الداخليّة، حيث يفزع أولئك الذين ما انفكّوا يؤمنون، وهم كثرٌ. والهوّة الفاغرة الشاسعة بين تعاليم الجليليّ الوديع الحالم، وتطبيقها العمليّ تنهض وحدها تهمةً دامغةً، وليس من شأن الملحدين الإعلان عن تلك الخيانة، بل على مؤسّس المسيحيّة نفسه، في أعقاب تجربةٍ تمادت ألفي عامٍ، أن يُقرّ بأنه قد ضلّ طريقه.

التاريخ يقاضي الإنجيل: منذ "المفتّش الأكبر" لدوستويفسكي، كم من الكتّاب الروس قد عالجوا هذا الموضوع الموجع بإحساسٍ حادٍّ بالمسؤوليّة الجماعيّة، ذلك الإحساس الذي يميّز الروح السلافيّة. بيد

أنّ شخص المسيح لم يكن، يومًا، حتّى ذاك، موضع نقاشٍ، بل كانت الكنيسة، أو الكنائس، هي التي تُتّهم بخيانة رسالته. وها إنّ ألكسندر روستوڤتشيڤ يُكلَّف بهذا الشرف التعيس، شرف إثبات أنّ رسالة المسيح تلك كانت ضلالاً.

على المسيح، إذن، أن "يرتدّ" ويتحوّل، وأن يتنكّب عن ملكوت السماوات، من أجل ملكوت هذه الأرض! وعلى الممثّل الكبير أن يسرّب إلى الجمهور اللاهث، المأسور بتمثيله، الشكّ الكفيل بنخره، واليأس القمين بالسيطرة عليه، إلى أن يحدث التحوّل الحاسم الذي يضحّي بأحلام الآخرة الضبابيّة من أجل واجبات هذه الدنيا القاسية. يتحتَّم عليه، إذن، أن يقدّم للمشاهدين مسيحًا جديدًا، حديثًا، عصريًّا، مسيحًا سحرته المُثُل الثوريّة، فانضوى تحت لواء كارل ماركس. وواجب روستوڤتشيڤ لا يكمن في التنفير منه، بل في أنسنته، وبفضل قضائه على التطلّعات الأُخرويّة، وعلى أطلال الإيمان بالسماويّات، الإسهام في تسخير قوى المسيحيّة الحيّة، لخدمة الثورة الشيوعيّة. حقًّا، لقد كان الرهان جسيمًا، وكفيلاً بأسْر ملحدٍ مناضلٍ.

وكان مرسومًا أن تستفزّ خطبة الجبل أزمة القنوط في نفس المسيح، بعد أن يسبر الفجوة التي تفصل التطويبات عن سنن التقدّم المحتومة، وأن تعبّر أقواله وحركاته عن ذلك التحوّل الداخليّ؛ وبالتالي، فهو، بغية التأقلم مع واقع هذا العالم، سيخلع، في حنقٍ، زيّهُ الخَلِق العتيق، كي يرتدي "زيّ اليوم"، وهكذا اختير للمسرحيّة عنوان "المسيح بالردنكوت".

ومن استقرى الصحافة السوفييتيّة، في أثناء التئام المجمع الفاتيكانيّ، لا يخفى عليه أنّ هذا ما كان يتطلّع إليه المسؤولون السوفييتيّون، في عالمٍ خلا من الله: القطيعة النهائيّة مع ماضٍ دارسٍ، باسم مسيرة التاريخ الحتميّة، التي لا تني تحرق الجسور.

ويتقدّم الممثّل الكبير بتؤدةٍ، ويتوقّف عند حافّة المسرح، وسط بؤرة الأنوار الساطعة التي تحيق به وتعزله. وكان عليه أن يملأ الفصل الثاني بمناجاةٍ فرديّةٍ مع ذاته.

وها هوذا يمثّل "خالق الكلّ" بحركاته الجليلة، وبردائه الأبيض، وقد أمسك مُجلَّدًا ضخمًا يمثّل العهد الجديد، وقد نمّت قسمات وجهه عن اضطرابٍ عميق الغور. وبصوتٍ لاهثٍ، جعله التأثر متهدّجًا، طفق يقرأ التطويبات:

"طوبى للفقراء بالروح، فملكوت السماوات لهم.

"طوبى للودعاء، فهم سيملكون الأرض".

وهنا يبلغ الممثّل ذروة المشهد، ونقطة التحوّل الحاسم، إذ كان، آنذاك، على المسيح "التاريخيّ"، وقد أدرك، أخيرًا، فشله، أن يقذف بالأناجيل التي، منذ عشرين قرنًا، تعيث بالمؤمنين فسادًا. كما كان عليه أن يخلع زيّه الذي أكل عليه الدهر وشرب، ويصيح: "أعطوني لباسًا أكثر توافقًا مع عصرنا. أعطوني وسائل أوفر جدوى من هذا الكتاب!"

وران على المدرّج الفسيح صمتٌ كصمت القبور، إذ كان تأثّر الممثّل يتفشّى في الحضور. ولكن ما الذي كان يحدث فعلاً؟

فروستوفـتشيـف، بعد أن تلا الآيتين الأوليَيْن من خطبـة الجبـل، توقّف، وتجلّت عليه أَمارات الاضطراب. وعبثًا جهد الملقّن في تذكيره بتتمّة النصّ. وشخصت كلّ العيون والقلوب إلى ذلك الرجل الـذي حَفَر الصراع الداخليّ ملامحه المنهكة، ذلك الرجل الذي صـمت... والذي، بغتةً، وبصوتٍ حازمٍ جليٍّ، واصل تلاوته:

"طوبى للذين ينتحبون، فإنهم سيعزّون.

"طوبى للجياع والعطاش إلى العدل فإِنّهم سيرتوون.

"طوبى للرحماء، لأَنّهم سيظفرون بالرحمة.

"طوبى لأَنقياء القلوب، لأَنّهم سيشاهدون الله.

"طوبى للساعين في سبيل السلم، لأنّهم سيدعون أبناء الله.

"طوبى لمن يُضطهدون، في سبيل الحقّ، لأنّ ملكوت الله لهم.

"طوبى لكم إذا شتموكم، واضطهدوكم، وافتروا علـيكم بكـلِّ سوءٍ، من أَجلي.

"اِفرحوا، إذن، وابتهجوا، فإنّ أَجركم، في السماء، عظيمٌ. أَفلـم يضطهدوا هكذا الأَنبياء من قبلكم؟"

أَين هم، إذن، رجال الأمن؟ ولَمَ لم يصرخ أَحدٌ، ولم يصفّر أَحدٌ، ليعيد الممثّل إلى رشده؟ لَمَ لم يحتجّ أَحد من الحضور؟ وحتّى الملقّن قـد تجمّد وخرس.

وأَخيرًا رفع روستوفـتشيـف عينيه، ونظر، من غـير أَن يـرى المشاهدين الذين وقف منهم كثيرون، وظلّوا ينصتون، وقوفًا.

وفي تؤدةٍ ومهابة، رسم إِشارة صليبٍ كبيرةً، وهو يقول:
"أُذكرني، يا ربّ، عندما تصير في ملكوتك!"

ثمّ غادر المسرح، وسقط الستار، من غير أَن يحتجّ أَحدٌ. ولم يكن الشيوخ، بين الجمهور، وحدَهم، هم الذين رسموا إِشارة الصليب، وهم يغادرون المسرح؛ فدعاء اللصّ التّائب، الذي يُجلّه الروس منذ أقدم العهود، ويعتبرونه أولى غنائم الرحمة اللامتناهية، قد هزّ أوتارًا سرّيةً في أعماق القلوب. ثمّ إِنّ الرحمة لا تقضي على الطبيعة، وروستوفتشيف، وقد نشبت به النعمة، لم يكفّ عن كونه ممثّلاً فذًّا.

هذه الرواية، نقلها لنا شاهد عيانٍ، وإِليكم تتمّة رسالته مترجمةً عن الروسيّة:

"لقد كنت قد قصدت المسرح بدافع الفضول، وبدافع ملل الفراغ. فلم يكن، ثمّةَ، ما يشغل ليليتي تلك؛ وكانت الدعاوة للمسرحيّة، ولا سيّما بين الشباب، على أَشدّها. وأَنا لم أكن مؤمنًا، بل ولا معمّدًا. في المنزل، كانت جدّتي توقد، كلّ أُسبوعٍ، أَمام الإِيقونات، مصابيح صغيرةً. وكنّا ندعها وشأنها، فهي طاعنةٌ في السنّ، وما من سبيلٍ لإِصلاحها. وكنّا، أَنا وإِخوتي، نضحك، في سرّنا، معتقدين أَنّ تلك إِنّما كانت خزعبلاتٍ قد شفانا منها العلم، ولا سيّما أَنّهم كانوا لا ينون يردّدون على مسامعنا، في المدرسة وفي كلّ مكانٍ، أَن لا وجود لله، وأَنّ الدّين إِنّما هو ضربٌ من الاستلاب. ومع ذلك، كنت كلّما أَجلت في خاطري، قضيّة الموت، وكلّ ما تنطوي عليه الحياة من أُمورٍ

مستغلقة الإدراك، كالألم، يتولاّني ضيقٌ كمينٌ. ويوم افتتاح مسرحيّة "المسيح بالردنكوت" كنت طالبًا في المعهد التقنيّ.

"ولست أُخفي أنّني قد أُعجبت بالفصل الأوّل، كنت أَقول لنفسي: "هكذا، إذن، كانوا يخدعون الناس!" وقد بدا لي أولئك الرهبان والراهبات على جانبٍ كبيرٍ من البشاعة. إلاّ أَنني لم أكن أَتوقّع ما حدث بعدئذٍ.

"ولّما ظهر روستوفتشيف، كنت مصغيًا بكلّ اهتمامٍ، فقد كنت أَعلم أَنّه ممثّل مجلٍّ؛ ثمّ عندما شرع يقرأ الكتاب، شعرت بمثل طعنةٍ في قلبي. ولم أَتبيّن في الحال أَنّه كان يخرج عن إطار دوره. بل حسبت أَنّ المسرحيّة كانت مستمرّةً، إلاّ أَنّني، بغتةً، ألفَيْتُ نفسي في عالمٍ آخر. فللمرّة الأولى، كنت أَسمع عباراتٍ لم تكن "مسطّحةً"، بل هي تمسّ النفس في الأَعماق، وكلٌّ منها كان يُوقظ فيَّ أَصداءً سرّيّةً. لم أكن أدرك ما كان يحدث لي، ولكن تولاّني الشعور بأنّ كلّ تطويبةٍ كانت تناديني مباشرةً. ولم يعد إلقاءُ الممثّل مناجاةً فرديّةً، بل غدا حوارًا. وفي داخلي، هاتفٌ كان يؤكّد أَنّ تلك كانت هي الحقيقة، وأَنّ روستوفتشيف إنّما كان يعير للمسيح صوته. وقد قلب ذلك كياني وعالمي. فالقول أَنّ الباكين والمتألّمين هم سعداء، يبدو لا منطقيًّا.

"وعندما بارح روستوفتشيف المسرح، في النهاية، كنت أُدرك أَنّ ذلك كان صحيحًا. وكانت امرأةٌ، إلى جواري، لا تني ترسم إشارة الصليب مردّدةً: "ارحمني، يا ربّ". وحينئذٍ أَخذتُ، أنا أيضًا، أقول: "ارحمني، يا ربّ".

"ومنذ ذلك اليوم، وأنا أؤمن. وهذا لا يعني أَنّني أَنكـــرت جميـــع معتقداتي السابقة. بيد أَنّني قد وجدت، لهذا العـــالم المـــسطّح، البعـــدَ الثالث، العمق والعلوّ، البعد الشاقولي. ومذ ذاك، بتُّ أَعتقد أَنّ الـــدين هو إِغناءٌ جمٌّ لحياتنا الإنسانيّة، وأَنّ الربّ يسوع هو ســـيّد الأشـــياء كلّها".

نجهل ما حلّ بأَلكسندر روستوڤـــتشيـــڤ[1]. ولن يَأْخُذ علينـــا القرّاء إِحجامنا عن الإِدلاء بإِيضاحات أَوفى عن الطالب الذي نقل إلينا ذلك الحدث. ولكن، وقد مضت بضع سنواتٍ، يسعنا التأكيد فقط بأنّ ارتداده لم يكن لهيب قشٍّ.

وبعد المجمع الـــڤـــاتيكانيّ الثاني، علينا أَن نشعر، أكثر مـــن أيّ وقتٍ، بالتضامن مع جميع الذين يـــدعوهم الـــربّ ليكونـــوا شـــهود التطويبات، كما علينا أَن نتعهّد جلاّديهم بالدُّعاء، على نحو ما فعـــل الشمّاس اسطفانُس حيال شاول الطرسوسيّ.

---

(1) "ربّما انضمّ إلى نزلاء المصحّات العقليّة، أو نُفي إلى جزيرة الكولاغ، أَو هو لحق بـــاللصّ التائب، في فردوس السيّد الذي اعترف له بالمجد الأَبديّ. حيثما كان عليه السلام والبركة".
بروكبرجيه

٥

قدّاسٌ بلا كاهن

قدّاسٌ بلا كاهن

– من لم يكن حاضرًا هناك لا يستطيع أن يُدرِك.

– لا تتوهّم! فأنا أُعير، يمنةً ويسارًا، كتاب "سارقو الله"، وتسع مرّاتٍ من عشرٍ يُعاد لي مشفوعًا بهذا التعليق: "إنّه مثيرٌ جدًّا. ولكن هل هو يصوّر الحقيقة؟ أَوَلم يُضِف المؤلّف من عنده الكثير؟ وعلى كلّ حالٍ، يحقّ له أن يفعل ذلك".

وتوقّف لحظةً، ورمقني بنظرةٍ متحرّية، فيما كنت أراقبه، صامتًا. كانت ملامحه مثيرةً للاهتمام، وكان يبدو منيعًا، ربع القامة، شديد المراس، مثل سنديانةٍ جبليّةٍ صامدةٍ في وجه العواصف؛ وكان يوحي بالثقة، ولكن من يدري؟

– إنّني تاجرٌ، كثير الترحال؛ ومنذ فترةٍ، عهدت إليّ الشركة التي أعمل فيها بعلاقاتها مع بعض بلدان أوروبا الشرقيّة. وأَعتذرُ لتعذّر إفصاحي عن تفاصيل أوفى. وأودّ التنويه بأنّني، يوم كنت أَسير حربٍ، شغلت نفسي بتعلّم واحدةٍ من تلك اللغات السلافيّة التي تتحدّى وسائلنا اللفظية، وها أَنذا، بفضل ذلك، أتمتّع بالسفر على نفقة سواي.

لم تكن تلك المقدّمة لتتوافق مع الحجّة التي تذرّع بها، عندما طلب مقابلتي، في أَعقاب محاضرةٍ، قائلاً: "لديّ رسالة أبلّغها إليك". فكلّ ما قاله، حتّى ذاك، لم يكن يتعدّى انطباعات سفر ممثّلٍ تجاريٍّ، إلاّ إِن هو كان ينتهج أسلوب التشويق. وربّما لحظ تململي، فقال، وهو يخرج من جيبه صرّةً صغيرةً ملفوفةً بورقٍ حريريٍّ:

– عليك بالصبر. لقد عدت من أحد أسفاري بهذه الذخيرة. هل ثمّة ما يدهشك؟ ليست سوى كسرة خبزٍ محمّصٍ. وقد جئت أروي لك قصّتها.

وفي تؤدةٍ ووقارٍ، عبّأ غليونه، وما لبثت شعلة القدّاحة أَن أَضاءت، منه، لحظةً، عينين غشتهما الدموع. وتابع:

– إِنّها قصّةٌ مذهلةٌ، قد دفعتني إلى إِعادة النظر في مسيحيّتي كلّها، ولا سِيَّمَا أَنّني من بيئةٍ تؤمن بالأساليب العلميّة، وأَنّني شغوفٌ بالدقائق الجليّة، الواضحة.

كنّا نجلس، وحيدين، في مقهى فندق لوتسيا، وكانت النافذة الصغيرة المُطلَّة على مفترق الطرق تُصَفّي الضجيج المتصاعد إلينا، وتتلوَّن شيئًا فشيئًا، باللون الزهريّ. وملأت النادلة أقداحنا بالقهوة ثمّ توارت.

"قد تكون قصّتي تافهةً، وقد يكون ما زعزعني هو من الأَحداث اليوميَّة المألوفة هناك. ومع ذلك، هي شهادةٌ أبلّغها إليك، وحدثٌ صغيرٌ نظرت إِليه بموشور رجلٍ عاديٍّ من رجال مما ندعوه العالم "الحرّ".

"كنت، إذن، مسافرًا، وفي يوم أحد، لدى مروري بمحلّة س... استفسرتُ، عَرَضًا، عن وجود كنيسة كاثوليكيّة، وقد ارتعشت العجوز التي وجّهت لها ذلك السؤال، عند عتبة الفندق، وأجابت:

- أنت الغريب... ذلك واضح. إذن هيّا من هنا...

- لا تكلّفي نفسك أيّة مشقّة. بل حسبك أن تدلّيني على السبيل.

- أنا أيضًا ميمّمةٌ شطر الكنيسة. فنحن هنا لسنا كفّارًا.

"كانت تجري بخطوات صغيرة، وتُراقبني خلسةً. وكان معطفها الأسود الذي جعلته السنون لامعًا، وخفّها الذي يتحدّى خفّ "قان كوخ"، وخمارها الذي شحبت ألوانه، وكلّ هندامها، تنمّ عن البؤس الشريف الذي يطبع أهل البلدة، والذي، للأسف، قد أخذتُ آلفه.

"الأزقّة التي كنّا نجتازها كانت تضاعف حدّة ذلك الشعور بالاغبرار والبؤس. وكان المارّة يحدجونني بنظرات فضوليّة، ولكنّها خاليةٍ من العداء. وأفضينا إلى ساحة بدت وكأنّها تضمّ جميع مسالك المدينة عند أقدام كنيسة عتيقة، مُبهمَة الطراز، تعلو مدخلها لوحةٌ حجريّةٌ حُفِرت عليها مشاهد انتقال السيّدة العذراء، وكان مصراعا بابها يئنّان لدى عبور المؤمنين الذين كانوا، آنذاك، يتوافدون من كلّ صوب. وقد غبطتُ نفسي لاتّخاذي دليلاً تلك العجوز التي كانت تردّد كلمة السرّ يمنةً ويسارًا، في ثقة تامّة، فلولاها لما أُتيح لي ولوج الكنيسة التي انتصب، في رواقها، رجلان شديدا البأس، متأهّبين لكلّ طارئ. وقد همست رفيقتي: "هذا هو الغريب، وسيسافر هذا المساء".

وكان ذلك صحيحًا، و لم يكن من العسير أَن تعلم به، فتحرّكات نزلاء الفندق الوحيد في المدينة لا تخفى على الفضوليّين.

"كانت الكنيسة غاصّةً بالحضور. وتسلّلت رفيقتي نحو مصلًّى في الجناح الأيسر مزدحمٍ بالنساء، فيما احتشد في الجناح الأَيمن الرجال من مختلف الأعمار والطبقات، وفي غضون دقائق معدوداتٍ، أَصبح شخصي موضع اهتمام الجمهور كلّه. ولا ريب أنّ المعلوماتٍ المهموسة قد انتشرت بسرعةٍ في كلّ أَرجاء الكنيسة، بحيث أعرض عنّي الجميع، بغتةً، على نحو ما اهتمّوا بي. وشخصت جميع الأبصار إلى الهيكل حيث كان أَحد خدّام المذبح الصغار بردائه الأبيض الطويل، وياقته القرمزية، يفرغ من إِشعال الشموع. وكان الجميع يمسكون في أَيديهم كتاب صلاة القدّاس.

"وفجأةً برز من باب الموهف ستَّةٌ من خدمة القدّاس، حاملين الشموع والمبخرة وكتاب الصلاة الكبير. وكان على الكاهن أَن يلحق بهم، إلاّ أَنّه لم يظهر. وقد شكّل الفتيان نصف دائرةٍ أمام الهيكل، ثمّ انسحبوا بانتظامٍ محكمٍ، في حين كان حامل المبخرة يؤرجحها، ناشرًا زوبعةً من الدخان العَطِر...

"وكان الصمت من الكثافة بحيث اعترتني خشيةٌ مبهمةٌ، رغم ما يتّهمني به أَفراد أُسرتي من تبلّد الشعور. فقد خُيّل إليّ أنّني كنت أحضر القدّاس الأَخير قبل نهاية العالم، وبدا لي وكأن خشوع الحضور اللاهث ينذر بكارثةٍ.

"وارتعشتُ، بغتةً، عندما خرّ اثنان من خدّام المذبح راكعين أَمـــام الهيكل، وبعد رنّة جُرَيس عنيفة شرعا يردّان على دعاء كـــاهنٍ غـــير مرئيٍّ، بصوتٍ حادٍّ، وقد انحنيا حتّى لامس رأساهما الأرض. وجال في خاطري: "يا للورطة التي توحّلت فيها!... لا ريب أَنّها إِحدى تلـــك البدَع التي تحفَل بها البلاد المشرقيّة". ولولا كثافة الجمهـــور، لكنـــت، بالتأكيد، تسلّلت خارجًا، من غير أَن أَنتظر النهاية.

"ثمّ طفق الجمهور ينشد "ارحمني، يا ربّ" في نغمةٍ هي أَقرب إلى المازوركا (رقصةٌ بولونيّة) منها إلى الألحان الغريغوريّة. وكان المـــشهد مثيرًا للشفقة والتأثّر بحيث أَعجز عن وصفه. كان الجميع ينشدون بكلّ ما في حناجرهم من طاقةٍ، وأَبصارهم ناشبةٌ بالهيكل الخالي من الكاهن، في حين كان الخدّام الصغار منهمكين في أداء مهامّهم على أكَمل وجهٍ، وفي جدٍّ فائقٍ. وقد وقف صبيٌّ برداءٍ أَبيض طويلٍ إلى جانب الكـــاهن غير المرئيّ، يقلّب صفحات كتاب القدّاس. وكنت أَفرك عينيّ خـــشية أن أكون قد وقعت فريسة هلوسةٍ حجبت عن أَنظـــاري مـــا كـــان الآخرون يرونه: كاهنًا على المذبح يقيم الذبيحة.

"كنت مأخوذًا بذلك المشهد اللغز، بحيث لم ألحظ، بادئ الأمـــر، الرجل الشيخ الذي خرج من وسط الجماعة، وانتصب واقفًـــا أمـــام حاجز المناولة، ممسكًا بيده كتاب صلوات القدّاس مفتوحًـــا، وشـــرع يتلو، بصوتٍ مرتفعٍ، على التوالي، فاتحة القدّاس، وســـائر الـــدعوات والرسائل، باللهجة المحلّية. ثمّ نقل المرتّل الكتاب إلى الجانب الآخر من

الهيكل، وهبّ الجميع وقوفًا. وإثر تلاوة الإنجيل، صمت رئيس المحفل بضع لحظات، في خشوعٍ وتأمّلٍ، ثمّ ألقى خطابًا موجزًا يسعني أن أدعوه عظةً، فقد كان شديد التوافق مع قدّاس النهار، ويتّسم ببساطةٍ فائقة، خاليةٍ من جميع الأساليب الخطابيّة، بحيث كاد يكون تافهًا. غير أنّني ما لبثت أن تبيّنت خطل حكمي، فما بدا لي تافهًا لم يكن كذلك في نظر جيراني الذين كانوا يرتشفون، بنَهَمٍ، كلّ كلمةٍ يتلفّظ بها الخطيب ويواكبونها بالتنهّدات، بل بالعَبَرات.

"وعندما فرغ من عظته، غيّر الشيخ نبرته، وبصوتٍ خفيضٍ قال:

– لقد أرسلوا لنا خبزًا مقدّسًا، وهم يُهيبون بنا أن نصلّي بغزارةٍ لأصدقائنا ولأعدائنا. وهم وطيدو الثقة بأمّ إلهنا القادرة على تحويل الشرّ إلى خيرٍ، ويوصوننا بالتضرّع من أجل ثلاث حالاتٍ مستعصية...

"كلّ ذلك، في بساطةٍ لا تقاوَم، ولكن في استغلاقٍ على الإدراك تامٍّ. فمن هم أصحاب الرسالة؟ وفي غضون ذلك، كان كثيرون، ولا سيّما بين النساء، يتمخّطون في صخبٍ، أو يجهدون في خنق عبراتهم.

"في أعقاب صلاة التقدمة، أنشد أحدهم، بصوتٍ أخنّ، ترنيمةً تابعها، على الفور، جميع الحضور. والتفت القارئ نحو المذبح وسجد، ثمّ وضع على الدرجة الأولى سلّةً صغيرةً، في حين كان القدّاس السرّي مستمرًّا وفق النهج المألوف. وقد هزّ خدّام الهيكل أجراسهم الصغيرة بعنفٍ، عند صلاة التقديس، فسجد الجمهور، وسط التنهّد والنحيب.

وما لبث أن لفّ الصمت كلّ شيءٍ، وشخصت جميع الأبصار نحو المذبح. وحينئذٍ فقط لحظت أنّ نور الهيكل كان مُطفأً، للدلالة على غياب القربان المقدّس. وأخذت أتساءل، محتارًا، ماذا سيحدث في موعد المناولة.

"كان الجميع راكعين على البلاط البارد، فلم أجرؤ على مخالفتهم، وقد جثت، إلى جواري، فتاةٌ تكاد تكون طفلةً، وهي تصلّي، مغمضة العينين، في حرارةٍ أدهشتني. وقد عجزت أهدابها الطويلة عن حبس دموعٍ كانت تنثال، برقّةٍ، على وجنتيها، وتتلكّأ، هنيهةً، عند أطراف شفتيها، قبل أن يمتصها خمارها الصوفيّ الذي كان يتقاطع على صدرها ثمّ ينعقد على ظهرها. ومرَّةً أُخرى، رنّت الأجراس الصغيرة، وأزف موعد المناولة. ومثل حقل قمحٍ عصفت به الريح، انحنت جميع الرؤوس نحو الأرض، وساد الصمت لحظةً. ثمّ تناول القارئ السلّة الموضوعة عند أقدام الهيكل والتفت إلى الجمهور، وقال:

– فلنفعل وفق ما أوصانا به، ولنقتسم خبز الوحدة، ريثما يعود، فنتناول القربان الأقدس.

"ثمّ سرت السلّة عبر الصفوف، من يدٍ إلى أُخرى، ومنها كان كلّ فردٍ يقتطع كسرةً صغيرةً يلتهمها في خشوعٍ. ولمّا حلّ دوري تظاهرت بالتهام نصيبي، غير أنّني احتفظت به، في حفنة يدي. وها هوذا".

وأدرت ألحاظي صوب المغلّف المفتوح الذي كان ملقًى على المنضدة، منذ بدء حوارنا، حيث كانت كسرة الخبز الأسود تبدو وكأنّها قد قطعت بالسكّين.

وتابع محدّثي قوله.

"لقد أحجمتُ عن التهام "خبز الوحدة" لأنّني كنت مرتابًا. فمع أنّ موجة الاضطراب التي اجتاحتني، أوّل الأمر، قد تبدّدت، بحيث عكفت، أنا أيضًا، على الصلاة، وكأنّني أحضر قدّاسًا حقيقيًّا، إلاّ أنّ تلك الطقوس الغريبة ظلّت تبدو لي لغزًا لم أُفلح في العثور على مفتاحه. وإذ كان الشكّ ما انفكّ يراودني، فقد آثرت الامتناع عن تناول نصيبي من خبز الوحدة. ونِعْمَ ما فعلت، إذ لولا ذلك لما استطعت في هذه الساعة أن أريك ذخيرتي".

وأُقرّ بأنّني، أنا أيضًا، لم أستطع إدراك معنى ذلك "القدّاس غير المرئيّ"، وساورتني الريبة بأنّه ربّما كان بدعةً ما... ويبدو أنّ محدّثي قد استشفّ ما كان يجول في خَلَدي، فقال:

"إيّاك والتيه في مسالك الضلال. فإنّ كلّ تلك الطقوس كانت سليمةً ومتوافقةً مع اللاهوت الصحيح. وإليك التتمّة:

"فبعد توزيع الخبز المقدّس، طفق الشعب ينشد ترنيمةً قديمةً جدًّا، تترجم في لهجة محلّية بعضًا من طقوس جمعة الآلام، ومنها: "أيّها الربّ القويّ، أيّها الربّ الأبديّ الخالد، ارحمنا". كان النشيد يتفجّر من أعماق القلوب، والوجوه التي كانت، قبل قليلٍ، يصبغها الحزن قد تجلّت وأشرقت.

"بعدئذٍ انسلّ الحضور على مهلٍ؛ وكانت النساء، على نحوٍ خاصٍّ، تتلكّأْن في الانصراف. وأَخيرًا رسمت جارتي إِشارة صليب كبيرةً، وانتصبت بجهدٍ، ونفضت الغبار العالق بركبتيها، وحدّقت فيّ، فباغتّها بالسؤال:

– أَين كاهنكم؟

– في السجن.

– ما أمرُ هذا الخبز، إذن؟

– إِنه يُنْفِذُ إلينا، بين الفينة والأُخرى، كِسَرًا صغيرةً من الخبز باركها بيديه المكرّستين، وحينئذٍ تسري عدوى البركة إلى كلّ محتوى السلّة. ويتغاضى الحرّاس عن ذلك.

– ولَمَ هم أوقفوه؟

– لأنّه كان ذا تأثيرٍ لا يُقاومَ، وقد تخطّى عدد المرتدّين على يده كلّ الحدود. وعندما شرعت زوجة قائد الشرطة وابنته تختلفان إلى الكنيسة اعتقلوه. ولكن أنّى لهم اعتقال الروح القدس؟ فهاتان المرأتان كانتا، قبل قليلٍ، بين ظهرانينا. ولو هم أغلقوا الكنيسة لاجتمعنا في أيٍّ من منازلنا.

– ولكن ربّما تعلمين أَنّ ذاك لم يكن قدّاسًا حقًّا ولا مناولةً حقيقيّةً.

فشزرتْني وأَجابت مستنكرةً:

– أَيّها السيّد، أَتظنّ أَنّنا نجهل أَمر ديننا؟ بالطبع نحن نعلم أنّ هذا

ليس قدّاسًا حقيقيًّا. ولكنّ الأب الكاهن كان يقول لنا، قبل اعتقاله: "كلّ يومٍ، ألوفٌ، بل ملايين من القداديس تقام في شتّى أرجاء الدنيا، فكونوا على اتّصالٍ بها بفضل نيّةٍ صافيةٍ وحارّةٍ. وهكذا، حتّى قدّاس البابا، في روما، يُصبح قدّاسكم، إن أنتم ابتغيتم ذلك".

– وإذن، فكاهنكم هو الذي أوعز إليكم باقتسام الخبز المقدّس إن لم يتسنَّ لكم ما هو أفضل؟

– أجل! فضلاً عن أنّه طوال صيامٍ كاملٍ ما انفكّ يحدّثنا عن مناولة الرغبة ويكرّر قوله لنا: "إن تعذّر عليكم تناول الأسرار المقدّسة فتناولوا بالرغبة، والله يتولّى البقيّة".

"وعندما صرنا إلى باحة الكنيسة حيث كان أحداثٌ يعبثون، ابتسمت المرأة العجوز وقالت، وقد اعترت صوتها نبرة اعتزازٍ بريءٍ:

– إنّهم يسترخون. أوَلم يكونوا رائعين، قبل قليلٍ؟

وحلّت أنوار مصابيح الشارع العاكسة محلّ مجد شمس المغيب، واتّشحت باريس بالظلمات، مثل إحدى فاتنات الليل، وقد همّت أن تبرز من خدرها. وارتدى ضجيج المدينة جرْسًا مختلفًا، وراح يتضاءل، وغدا كلّ شيءٍ من حولنا يوحي بالرفاه والنظام والأمن.

وأطرق محدِّثي هنيهةً ثمّ أضاف: "أُفهي حديثي باعترافٍ... فللمرّة الأولى، في حياتي، بين جدران تلك الكنيسة التي خلتْ من كاهنها، أدركت ما هو القدّاس...".

ومع ذلك، كم نحن غالبًا ما نستخفّ بالقدّاس!

٦

أنيبيس

أنييس

– ألتمس منك خدمةً، أيّها الرفيق، ولا يسوغ لك رفضها. أَوَلستَ كاهنًا؟ إنّ لِي بلاهوتكم المسيحيّ إلمامًا. أوَلستم تقولون: "أنت كاهنٌ إلى الأبد؟" إنّ الأمر يتعلّق بالعدالة. فالفتاة ترفض الإقرار، ولكنّها، في الاعتراف، ستكشف كلّ خفاياها. ولكن حذارِ، إذ ليس، بعدُ، أَمامها، متّسعٌ من الوقت طويلٌ. والطبيب يرى أنّ إصابتها خبيثةٌ، وقد تودي بها بَغْتةً، في أيّة لحظة. هيّا، أَصطحبك.

في تلك الأَثناء، كان "الرجل" يدعك، في عَصبيّةٍ، قبَّعته، وقد أسند مرفقيه إلى المنضدة؛ كان ربع القامة، بهيّ الطلعة، زائغ البصر

وبعد لحظة صمت، استأنف مفوّض الشرطة:

– من المؤكّد أنّه ليس انتحارًا، وقد أكَّد الخبراء ذلك، فضلاً عن استحالة الانتحار، من وجهة نظرٍ نفسيّة. فأنييس – وهو اسم الفتاة – هي من طراز الفتيات البريئات اللائي تجوز مناولتهنّ من غير اعتراف، حسب تعبيركم؛ عذرًا، إذ إنّه يغرب عن بالي أنّك كاهنٌ خالعٌ؛ ولكن لا بدّ أنّك لم تنسَ كلّ شيءٍ. خذ، هذه عدّتك بأكملها، و لم أَنس البطرشيل.

وتناول الرجل قدح كحولٍ كان على المنضدة، فابتلعه دفعةً واحدةً، ومسح فمه بظاهر يده، ثمّ أخذ يذرع الغرفة الضيّقة، مثل حيوانٍ مفترسٍ في قفصٍ. من الواضح أنّه كان ينشد مخرجًا، غير أنّ رجل الأمن كان يسدّ، دونه، الباب، وإن لم يتظاهر بذلك، إذ قد استرخى فوق الأريكة الوحيدة مقابل النافذة.

وتمادى، هذه النوبة، الصمت الذي كان يقطعه عواء كلاب القرية، وبين الحين والحين، هبّة ريحٍ عاصفةٌ، كانت تزوبع في المدخنة، فتهتزّ لها النافذة والباب؛ وكان الليل قد أرخى سدوله.

واستأنف رجل الأمن ممارسة ضغوطه:

– ما الأمر يا رفيق؟ يبدو أنّ ضميرك شديد الحساسيّة هذا المساء!

وفجأةً، توقّف الرجل وقال:

– حضرة المفوّض، أنت تعلم أنّني أمقت العودة إلى الماضي، مثلما أمقت المهازل. على أيّ حالٍ، أنا لم أتخلّ عن ضميري، ومجرّد التفكير بخداع الفتاة يثير اشمئزازي. فإن هي كانت تحتضر حقًّا، وتطلب كاهنًا، فلمَ لا تنفّذون رغبتها، وتدعوني وشأني؟

وردّ المفوّض غاضبًا، وهو يؤكّد كلّ مقطعٍ من أقواله:

– يا لك من خاملٍ وجبان! وكأنّني أطلب منك أن تشرب البحر! ثمّ إنّك تعرف نصّ القانون: كلّ من استطاع تحديد هويّة قاتلٍ، وتقاعس، أصبح متواطئًا. لقد أجرينا تحقيقًا مستفيضًا، واضطررنا إلى

التخلّي عن جميع الآثار التي تخيَّلنا أنّها قد تقودنا إلى المجرم. لا يسعني الحكم اعتباطًا على أبرياء، ومع ذلك، يفرض عليَّ الواجب أن أكفل استتباب الأمن في المنطقة. إنّ قاتل هذه الفتاة سيغتال فتاةً أُخرى غدًا. أهذا ما ترغب فيه؟

– و لِمَ، إذن، لا تقوم أنت باستجوابها؟

– أَوَتظنُّني أحمق؟ من المؤكّد أنّني قد استجوبتها، ولكنّها تأبى الاعتراف، وتكتفي بالتحديق بعينين تلتهب فيهما الحمّى، قابعتين في وجهٍ كأنّه من الورق المعلوك. لقد أفقدها المجرم كلّ دمها، ومع ذلك تتظاهر بالجهل المطبق، مع أنّ عينيها تنمّان عن إدراكها لكلّ شيءٍ. لقد أجريت من التحقيقات، في حياتي، قدرًا جمًّا، بحيث أفهم، في الحال، معنى ذلك الألَق المفاجئ في عيني عملائي. ولكن، ما حيلتي إزاء محتضرةٍ في مثل عمر أبنائي؟ أمّا أنت فبوسعك حملها على الاعتراف، متذرّعًا بالرفق والأناة، وبذلك تكون قد أدّيت عملاً صالحًا، إذ إنّ واجبنا، جميعًا، هو نشر النظام والاستقرار في مدينتنا...

– ولكن ليس بالثمن الذي تقتضيه. إذ لا يحقّ لأحدٍ اغتصاب الضمائر.

– من الواضح، أيّها الكاهن، أنّ مهنتك السابقة قد خلّفت فيك عاهةً دائمةً. أين ترى اغتصاب الضمائر؟ فالفتاة لن تعلم أبدًا، ما لم تكن أنت تتوهّم أنّ طيفها، بعد موتها، سيلازمك بملاحقته. أو إنّك، ربّما، ما زلت مؤمنًا بحياةٍ أبديّةٍ. أمّا أنا، فهذا العالم الثلاثيّ الأبعاد هو وحده

الذي يهمّني. حسبك ما فعلت، حتّى الآن، لإبطال العدالة. أمّا نحن فلسنا نرجئ إلى الآخرة المكافأة والعقاب. بل لكلّ فردٍ ما يحقّ له، وما يستأهله، منذ هذه الدنيا. هيّا تحرّك، فصبري قد أصبح منوطًا بخيطٍ واهٍ.

وحدج الرجل مخاطبَه، بنظرةٍ حانقةٍ، ودمدم:

- كاهنٌ... كاهنٌ... أمنعك من شتمي. إنّي...

- هيّا، فلننطلق، فليس لدينا وقتٌ نهدره.

كان المفوّض يسير في إثره، عن كثبٍ وفي حذرٍ، إلى أن استقرّ في المقعد الأماميّ من السيّارة، فأغلق الباب بعنفٍ، وصعد بدوره، وقبض على المقود، وانطلق كالعاصفة.

وجرت بهما السيّارة، ساعةً كاملةً، لم يتبادلا خلالها لفظةً واحدةً، حتّى أفضيا إلى طريقٍ مليءٍ بالحفر والأخاديد. وكانت قطرات المطر تنحدر واحدةً فواحدةً على الزجاج، وترسم فوقه أشكالاً عجيبةً، فيما كانت الريح تئنّ بين الأشجار، فتغطّي معزوفة البوم الليليّة. وبين فينةٍ وأُخرى، كان ضُباح ثعلبٍ فارٍّ يمزّق، بنبرته الحادّة، صخب العاصفة المتصارعة مع الغابة.

ثمّ سلكا دربًا ضيّقًا متعرّجًا، على ضوء المصابيح الساطعة التي لم تكن لتحول دون ارتطام السيّارة ارتطامًا خطيرًا بجُذور أشجارٍ تلامس الأرض. وتوقّفت السيّارة أمام منزلٍ واطئٍ، مستدقّ السقف، استنارت منه نافذةٌ واحدةٌ. وقال السائق، وهو يشير بذقنه إلى نورٍ كان يومض في صدر مدخل:

– ها قد وصلنا. إيّاك أن تغفل الدور المسند إليك، وما أنتظر منك.

وكان لهذه الكلمات التي تلفّظ بها المفوّض بتؤدةٍ، وقع إنذارٍ. وأجاب الرجل، ببسمةٍ شاحبةٍ، قائلاً:

– أيّها المفوّض، قد نلت منّي.

مصابيح السيّارة الخفيضة الباهتة هي التي، ربّما، كانت تبرز من الرجل ما يشبه شيخوخةً مفاجئةً وقسماتٍ متشنّجةً. وكانت أشباحٌ مبهمةٌ تتراقص على الحصى الذي كان يصرّ تحت أقدامهما. ومدّ إليه المفوّض رزمةً سوداء، وقال:

– هذه هي عدّتك الكهنوتية.

وفُتح الباب، فتدفّق على الشارع خطٌّ مستديرٌ من النور. عند العتبة كانت تنتصب عجوزٌ ضرّج عينيها السهاد، قالت بصوتٍ خافتٍ:

– أخيرًا، أخيرًا... لن يطول بها الأمر. تفضّل بالدخول، يا أبت.

ثمّ خاطبت المفوّض قائلةً:

– كيف لي أن أشكرك؟ فأنا عالمةٌ أنّك تخاطر بمركزك، إذ تأتينا بكاهنٍ. إنّك حقًّا طيّبٌ.

تلفّظت بتلك العبارة الأخيرة، في شيءٍ من التأكيد، ثمّ تراجعت لتتيح لضيفها الدخول.

كان الممرّ غاصًّا بشتّى الأثاث المتباين الطراز، والأكياس، وأكوام الثياب؛ وحاولت العجوز تبرير ذلك بقولها:

– لقد أمر الطبيب بتحرير الغرفة. وقد مضى ميشيل بحثًا عن

المزيد من أنبوبات الأوكسيجين، فهي تتنفّس بمشقّةٍ فائقةٍ... آه! للوحش، للّصّ! سأفقأ عينيه لو طالته يدي! كيف استطاع طعن حمامتي البريئة، ملاكي، كنزي!

وهمس المفوّض:

– هذه جدّتها. أمّا والداها، فقد قُتلا في إحدى الغارات.

ثمّ أعلن بصوتٍ عالٍ:

– يا حضرة الكاهن، سندعك وحيدًا مع الفتاة، علّ وجودك، وموارد مهنتك تسهم في تعزيتها، وتلطيف احتضارها. ننتظرك في الغرفة المجاورة حيث ينتظرك، أيضًا، كوب شايٍ. أليس كذلك، يا سيّدتي؟...

– كيف لا؟ بالطبع. تفضّل بالدخول، سيّدي. لم أكن لأستقبل ضيوفي، على هذا النحو، قبل الحرب. بيد أنّنا قد فقدنا كلّ شيءٍ، وقد احترق ودُمّر كلّ ما نملك... أجل، حضرة الكاهن، لقد أُحيطتْ علمًا بقدومك. إنّ المسكينة تقاسي آلامًا مبرّحةً، غير أنّها تحتفظ بكامل وعيها.

وأوصد "الرجل" دونه الباب برفقٍ. وللوهلة الأولى، لم يرَ سوى سريرٍ ينيره ضوء فانوسٍ شاحبٍ، قابعٍ فوق المدخنة.

– شكرًا، يا أبتاه، لقدومك.

جاء الصوت هزيلاً، لاهثًا، متهدّجًا، فيما كانت عينا "الرجل" تألفان العتمة. وتقدّم بضع خطواتٍ، فلحظ فوق حنيّة الوسادة وجهًا ناحلاً اتّسعت منه عينان تلتهب فيهما الحمّى، كانتا تحدّقان فيه بلجاجةٍ:

– ليتك تعلم كم عددْتُ الدقائق.

وصبغت شفتيها رغوةٌ زهريّة اللون، فيما كانت أَصابعها تـــضمّ، بشدّةٍ، أنبوبةً كانت تستنشقها بنهمٍ، كلّ دقيقتين أو ثلاث دقائق، وقد قالت، وهي تعتذر:

– إن لم أَفعل ذلك لاختنقت. باركني، يا أَبتِ، فهذا هو اعترافي الأَخير.

وكان، هو، قد فرغ لتوّه من فكّ الرزمة التي ناوله إِيَّاها المفوّض، والتي احتوت على كلّ شيءٍ، حتّى حقيبة الأسرار، والـــزاد الأخـــير. وطوّق عنقه بالبطرشيل، وجلس إلى جوار السرير، على كرسيٍّ كـــان معدًّا له، فيما كانت ذكرياتٌ قديمةٌ تداهمه وتضنيه. أَوَلم يكن الأمـــر كلّه حلمًا؟ كان يحاول التشبّث بهذه الخاطرة، في حين كانت شـــفتاه تتمتمان بعض عبارات التشجيع، "عبارات كاهن".

– يا أبتِ، قد اعترفت، مع جدّتي، لثلاث ســـنواتٍ خلـــت، في مدينة س... يوم مرّ بها ذلك الكاهن، أَلا تذكر؟ لقد كان يرتدي زيّ عاملٍ، ولكنّه كان كاهنًا حقًّا. وقد رسخت في قلبي كلّ أَقواله. لقـــد أمرني أن أتلو، بمثابة كفّارةٍ، صلاة "أَبانا" وأضاف: "تنبّهي، على نحـــوٍ خاصٍّ، لقول: اغفر لنا ذنوبنا، كما نحن نغفر لمن أساء إِلينـــا". وإذن، أَوَليس عليّ، قبل كلّ شيءٍ، أَن أَصفح عمَّن اغتالني!

وسألها بصوتٍ خافتٍ:

– هل تعرفين اسمه؟

– بالطبع... أمهلني لحظةً.

كانت تكاد تختنق، وقد تحوّلت الرغوة الزهريّة اللون، في زوايا فمها، إلى سلسلةٍ رقيقةٍ أُرجوانيّةٍ داكنةٍ، انسابت على عنقها وعلى أَغطية السرير. وقد استنشقت، مرّاتٍ متتاليةً، الأوكسيجين، وأغمضت عينيها اللتين كانت تحيق بهما دوائر قاتمةٌ واسعةٌ، فتضفي عليها مظهرًا يحاكي مظهر الأقنعة. وكان جيدها النحيل، الذي برزت نبضاته للعيان، يبدو وكأنّه قد بات عاجزًا عن حمل ثقل رأسها الذي انقلب إلى الوراء.

وظلّ "الرجل" صامتًا، يجهد في مقاومة شعورٍ بالرأفة أَخذ يداهمه، ويحدّث نفسه قائلاً: "عليّ عدم الانزلاق إلى مثل هذا الشعور، فقد يودي بي".

ربّما لحظت المحتضرة تلك الرعشة المباغتة التي اعترته؛ وعلى أيّ حالٍ، كانت قد باتت قادرةً على مواصلة اعترافها. أَمّا هو فأطرق، إذ لم يعد يقوى على مواجهة أَنظارها الملتهبة بالحمّى، وبنارٍ داخليّةٍ متأجّجةٍ... وألفى نفسه مأخوذًا في تيّار العادات السابقة الملتصقة بجلده، فغضب، وحاول التشبّث بهذا الغضب، علَّه يظهر به على تلك الرأفة الحمقاء التي نشبت بقلبه، الذي كان قد ظنّه منيعًا دونها.

وتابعت الفتاة المحتضرة:

"أَبتِ، عليّ أَن أُسرع في اعترافي، فأنا أكاد أَفقد الطاقة على الكلام. إنّه برنار ابن حارس الغابة الذي التحق بالجيش. وكان قد جاء في إِجازةٍ، وجرت الحادثة عشيّة عودته...

"كنّا جيرانًا، في صغرنا، وكنّا نعبث معًا. ثمّ قصد المدينة حيث تدرّب على العمل، وعندما أَخذ يدمن السكر، أصبح مصدر تعاسة أَبيه. منذ سنة، قبيل التحاقه بالجيش سألني: أَتريدين أَن تكوني لي زوجةً! وأَجبته بالموافقة، فقال: انتظريني، إذن.

"وقد أفعمني ذلك فرحًا، فقد كنت أحبّه حبًّا جمًّا. وطوال السنة، ما انفككت أحلم كيف سيكون بيتنا وأبناؤنا، وكنت أَنتظر عودته بشوق. ولكنّه لّما عاد، كان إنسانًا آخر، تفوح منه رائحة الفودكا في كلّ وقت، فضلاً عن أَنّ بعضهم قد افتروا عليّ وأوهموه أنّني أعاشر شابًّا آخر.

"وعشيَّة عودته إلى المعسكر تواعدنا على اللقاء قرب الطاحونة المهجورة، عند الأجمة؛ إلاّ أنّه أوصاني ألاّ أبوح بالأمر لأحد. وما إن رأيته حتى تولاّني الذعر. فقد كانت عيناه تنمّان عن شرٍّ مبيّت، وكان يتلجلج في كلامه. وبادرني بالقول: "أعلم أنّك، الآن، تعاشرين فلانًا".

– كلاّ، أقسم لك أن لا صحّة لهذا القول.

– إذن، إن كان ذلك افتراءً، فاستسلمي لي.

"وضمّني بين ذراعيه، ولكنّني قاومت بعنف، وتملّصت منه، وأَنا أَصيح:

– برنار، برنار، أَين هو، إذن، ضميرك؟ انتظر حتّى نتزوّج.

– إن لم تستسلمي، لقتلتك.

"ونظرت إليه، فأدركت أَنّه كان يعني ما يقول، إذ كان مثل شرَرٍ أَخضر يتطاير من عينيه. ولّما دنا منّي، وفاحت رائحة الفودكا، صحت: إنّ الله يرانا. فقال: لا يهمّني، إنّي أريدك. وجال في خاطري،

سريعًا: "عليّ الخيار: الموت أو تدنيس الشرف"، وفي الحال التفتت نفسي صوب السيّدة العذراء، فمنذ موت أمّي، هي التي أحادثها، وأوقن أنّها تسمعني. وهتفت لها: أنقذيني. وهي التي منحتني القدرة على المقاومة. حينئذ، وفيما كنت أتملّص للمرّة الثانية، طعنني برنار في ظهري، ولاذ بالفرار".

كان صوتها يخفت، شيئًا فشيئًا، ويتهدّج، بحيث اضطرّ الرجل أن يدني أذنه من شفتيها ليلتقط عباراتها الأخيرة. وصمتت، لحظةً، مطبقة العينين، ثمّ بصوتٍ يكاد لا يُسمع، تابعت:

"أبتِ، لا بدّ لك من البحث عن برنار، لتبلغه أنّني قد صفحت عنه. إنّني أعرفه: إنّه عنيفٌ، وعندما سيثوب إلى رشده، سيتولاّه القنوط. فبلّغه أنّني أرغب في أن يعيش. وقل له إنّني سأقضي وقتي، في السماء، متوسّلةً ربّ الرحمة أن يرأف به، وقل له أيضًا إنّ الربّ سيصفح عنه، بما أنّني، أنا، قد صفحت.

"والآن، سأعترف لك بخطاياي، لأنال الغفران".

في تلك الأثناء، كان المفوّض قد ضاق ذرعًا بالانتظار، واستبدّ به نفاد الصبر، فالجلسة، خلف الباب الموصد، قد طالت وتمادت، وتأوّهات الجدّة الممزوجة بالعبرات كانت تستفزّ أعصابه، فهي كانت لا تني تردّد:

– آمل ألاّ تتوانى عن شنقه، أيّها المفوّض.

– انتظري، يا سيّدتي، ريثما أقبض عليه، أوّلاً.

وفُتِح الباب بهدوء، وانتصب، في إطاره "الرجل"، وقد تدلّى البطرشيل من عنقه، وهو ساهم الفكر، مضطرب الملامح. وأَمر المفوّضُ العجوزَ أَن... تلحق بالفتاة فورًا، فابتعدت، وهي تعرج، وتشخر، وتنتحب. وسارع المفوّض بالسؤال:

- ماذا، إذن؟

- لست أعرف شيئًا.

- ليس هذا صحيحًا. لا بدّ أَنّها أَحاطتك علمًا. هي، وحدها، تعرف.

- أكرّر لك القول: لست أعرف شيئًا.

لقد استقينا هذه الرواية من أَحد أَصدقاء برنار. إذ إنّ "الرجل" الذي أمسكنا عن ذكر اسمه، قد برّ بوعده، واستطاع الإفلات من عيون المفوّض الذي ثارت حفيظته عليه، من جرّاء صمته، فأمر بمراقبته، ويوم استطاع، أَخيرًا، أَن يبلّغ إلى برنار رسالة أنييس الأخيرة، كان الشابّ على شفا الانتحار.

وقد أَكَّد لنا صديق برنار أَنّ "الرجل" قد اعتُقِل، بعد أَن قطع الصلات ببيئته و"عاد كاهنًا".

وقد التحق برنار بديرٍ للفرنسيسكانيّين، حيث أَصبح أَخًا خادمًا. أمّا أَنييس فمواطنوها يلقّبونها "ماريّا غوريتّي" منطقتهم.

٧

كاترين

كاترين

قصير القامة، شديد البنية، يحاكي إحدى سنديانات البيرينيه، وقد غطّت طاقيّته الصوفيّة قسمًا كبيرًا من جبينه الواطئ العنيد. كان يراقبني بنظره الصافي الكامن تحت حاجبين كثيفين أشعثين.

فمنذ مدينة تولوز، كنّا وحيدين في مقطورة القطار، وكنت منهمكةً في تصليح نسخ أَوراقٍ معدَّةٍ للطبع. وبعد أَن فرغ، هو، من تلاوة كتاب صلواته اليوميّة، استلّ من جيبه صحيفةً، وتظاهر بمطالعتها، وتنحنح مرّتين متتاليتين، في حين كنت أُصمّ أذنيّ، إذ كنت راغبةً في إنجاز مهمّتي بسرعةٍ. وأخيرًا سألني بلهجته الجنوبيَّة، المميّزة.

– هل تصلّحين كتابًا من تأليفك، يا سيّدتي؟

فأجبته مبتسمةً:

– أَجل، وهذه من المهامّ المهنيّة الشاقّة التي لا مهرب منها. أُنظر: ما زال لديّ كلّ هذه الأوراق التي عليّ الفراغ منها قبل بلوغ "لورد".

كان التلميح واضحًا، وكنت حقًّا في عجلةٍ من أَمري. وما لبثتُ

أن استغرقتُ في مواصلة التصحيح غير متخيّلةٍ أنّ إِصرارَ رفيق سفري، وإن هو كان مقنّعًا ومهذَّبًا، سينتهي بالانتصار.

– إِذن، أَنت كاتبة، يا سيِّدتي، وتقصدين لورد؟

كان يتكلّم بصوتٍ منخفضٍ، مؤكّدًا كلّ لفظةٍ من أَلفاظه. وأَخذت الدهشة، لديّ، تحتلّ محلّ نفاد الصبر الذي كان يساورني قبل قليلٍ، إذ لم يكن مظهر الرجل الريفيّ ليتوافق مع ما أَخذ يبديه من اهتمامٍ أدبيٍّ؛ واستبدّ بي الفضول، ورفعت إِليه أنظاري، فرأيت عينين حَجبتهما الدموع. وإِذ به يتابع كلامه:

– بما أَنّك تقصدين لورد، يا سيِّدتي، فذلك يعني أَنّك كاثوليكيّة، أَليس كذلك؟ ولا ريب أَنّ السيّدة العذراء هي التي هيّأت لي مقابلتك. لقد طالما سألتها: "لا تدعي هذه القصّة الرائعة تُدفن معي، بموتي". فقد طعنتُ بالسنّ، يا سيِّدتي، وأتممت الثمانين من عمري...

لم يكن مظهره ينمّ عَنْ مثل هذا العمر. أمّا أنا فقد استسلمت للجاجته، وألقيتُ برزمة أوراقي على المقعد. أَوَليس لكلّ كاتبٍ زبانيّته من المكلّفين بإبلاغ رسالةٍ؟ مع ذلك لم أكن أدرك إلى أيّ مدًى سأمضي معه في مشواره، وطالما أَنّ الحديث كان يدور حول لورد، فقد توقّعت أَن يحدّثني عن أعجوبةٍ.

قبل أَن يشرع في سرد قصّته العجيبة، استجوبني، على نحوٍ غير مباشرٍ، فبما أَنّني كاتبةٌ، لا بدّ أَن تكون مؤلّفاتي مطروحةً في السوق. ولم أَجد مندوحةً عن الإفصاح عن اسمي وبعض عناوين كتبي. حينئذٍ،

أَشرق وجهه وقال: "أنتِ، إذن، مؤلّفة كتاب "مجنون السيّدة العذراء"؟ لقد رغبت في الكتابة إليك، ولكنّي لم أجرؤ، فضلاً عن أَنّني أجهل عنوانك. إنّي أكتب بصعوبةٍ، وعندما أعيد... قراءة ما كتبت، يتبيّن لي أَنّه غير ما كنت أَقصد قوله".

بادئ الأمر، كنت أصغي إليه صامتةً، ثمّ استأذنته في تدوين بعض الملاحظات. وهكذا تابعتُ حديثه، والقلم في يدي. وعندما فرغ من اعترافه، قال: "لك أَن تفعلي به ما تشائين". سأوجز بعض الشيء، إلاّ أَنّني، في الإجمال، لن أحيد عن حرفيّة أقواله:

"أعتقد، يا سيّدتي، أَنّ في حياة كلّ كاهنٍ حوادث تنير درب كهنوته. هذا ما خَبَرتُه بنفسي. إنّها حادثةٌ قديمة العهد، غير أَنّني كلّما تذكّرتها، خيّل إليّ أَنّها حدثت أَمس فقط. كلّ ما أَطلبه منك هو أَن تغفلي اسمي، ولديّ من الدوافع ما يبرّر طلبي هذا. وهذه الدوافع غير خافيةٍ على المطّلعين على بواطن الأمور. هل تَعِدين؟"

وأومأت برأسي، واعدةً، فاستأنف حديثه:

"كنت، آنذاك، كاهن رعيّةٍ صغيرةٍ، في جنوب فرنسا، وقد خلفتُ، في ذلك المنصب، كاهنًا كان قد أَشاع الفوضى، فتعيّن عليَّ أَن أُكَافِح، بصلابةٍ، لكي أعيد الأمور إلى نصابها. لم يكن الناس معادين لله، ولكنّهم كانوا يمقتون الكهنة؛ وإبّان الحرب الأَهليّة الإسبانيّة، أَقام بعض المهرّبين، في منطقتنا، علاقاتٍ متّصلةً مع الحمر، للتعبير عن انحيازهم المبدئيّ إلى جانبهم، فالناس، في بلدي، ميّالون للمعارضة، ولا

يرضون بالحيْف. ودهاقنة الدعاوة، الذين يعرفون فيهم هذا الميـــل، لا يتوانون عن استغلاله. وهكذا، قبل الحرب، كان الناس، هنا، في حالة حربٍ، وكانت الأهواء تعصف.

"وحلّت هزيمة ١٩٤٠، وما نجم عنها من هجرة. ولن أَنسى أَبدًا تدفّق اللاجئين على طرقاتنا، والاضطراب الذي كانوا يتخبّطون فيـــه. لقد كانوا قادمين من الشمال، وقد أَحسن أبناء رعيّتي وفادتهم.

"ثمّ، في أَعقاب الهدنة، سُوّيت أمورهم، بعض الشيء، بمـــساعدة السلطات. غير أَنّ أُسَرًا كثيرةً استقرّت بين ظهرانينا، كما بقي عنـــدنا كاهنٌ شابٌّ، مصابٌ في رئتيه، لم يستطع الالتحاق بوحدتـــه. وقـــد أوكله إليّ الأسقف، راجيًا أَن يكون هواؤنا العليل مجديًا في شفائه، وأَن يصبح ذلك الكاهن الشابّ عونًا لي في مهمّتي. وقد رحّبت به، بجَذَلٍ.

"لم يتمّ التوافق من غير صدامٍ. ولم يكن التفاهم بيننا وبين المهـــاجرين يسيرًا أوّل الأمر، فلكلٍّ منّا لهجته وطباعه الخاصّة. وظلّ أبناء رعيّتي ينظرون الى أَهل الشمال نظرتهم الى غرباء؛ وما إِن خبت جذوة حمـــاس الوهلـــة الأولى، حتّى برزت بعض الصعاب. فالقريب ليس دائمًا مـــصدر راحـــةٍ، ومحبّته، حقًّا، تحتاج الى نعمة المسيح التي تمكّننا من جميع التضحيات.

"وكان غياب الرجال، الذين أُسِر عشرون منهم في ألمانيا، يـــثير الفوضى في القرية ولا سيّما أَنّ المهجّرين كانوا يقيمون في بعض منازل القرية، ممّا كان يطرح مشاكل أَخلاقيّةً دقيقةً. لا ريـــب أَنّ أولئـــك الوافدين من الشمال كانوا، كلّهم، مؤمنين، ولكنّ تعاليمنـــا الدينيّـــة

كانت دائمًا تدعونا الى تجنّب أسباب الخطيئة، في حين أنّ الحرب كانت توفّر هذه الأسباب بغزارةٍ.

"ولذلك استعنت بالشباب، فهم أكثر سخاءً وجاهزيّةً، وقد أَنجدني فريقٌ من أبناء مريم، والشبيبة الكاثوليكيّة، والكشّاف، وانضمّ إِليهم بعض شبّان الشمال، وكانت، في عدادهم، كاترين.

"أستميحك عذرًا عن هذه المقدّمة الطويلة، وأَدخل في صلب الموضوع وأَبدأ بالقول إنّ هذه الفتاة كانت لي بركةً من السماء.

"لقد كانت يتيمة الأبوين اللذين قُتلا في غارةٍ، في أَثناء الهجرة، وكانت تقيم مع عمّتها التي أُسِر زوجها. لقد شُغِفَتْ بها شقيقتي ڤيكتورين التي تديرشؤون منزلي، منذ اليوم الأوّل، وأَخذ قلبها الشيخ يستعيد شبابه في وجودها. ولا عجب في ذلك، فكاترين كانت جميلة المظهر والباطن معًا. وإنّ الربّ يبرع أَحيانًا في إنتاج مثل تلك التحف، روائع الطبيعة والنعمة. صحيح أَنّها كانت قد نشأت في أسرةٍ مسيحيّةٍ، ولكنّ ذلك لا يكفي لتفسير كلّ ما كانت تتميّز به.

"كانت في ميعة الشباب، تحاكي برعم وردةٍ يتفتّح؛ وقد وقع في هواها جميع الفتيان، ولكن لم يتخاصموا من أَجلها، ولم يتصارعوا، فنقاؤها الفائق كان يضعها في منأًى عن منال أيٍّ منهم؛ وربّما كان ذلك هو سرّ تفوّقها وتأثيرها. عندما كنت أَراها، كنَت أَتخيّل مصباحًا من المرمر الشفّاف. لا تبتسمي! أَلم يقل الربّ يسوع إنّ النور الداخليّ يضيء الجسم كلّه؟ لقد كانت تلك الفتاة شفّافةً حقًّا.

"وسرعان ما تجلّى تأثيرها في أوساط الشبيبة. لقد كان الجميع يحبّونها، إلاّ أنّ ذلك الإجماع لم ينلْ، في شيءٍ، من عفويّتها، ولم يوحِ لها بأيّ تعالٍ. ولكن عندما كان يحدث خطأٌ، كان يغشاها الأسى، وتتألّم على نحوٍ ظاهرٍ، بحيث يتمنّى الجميع أن يفعلوا أيّ شيءٍ لكي يعيدوا لها بسمتها. وهكذا، من غير أيّ ضجيجٍ، كانت ترتقي بالشبّان، مثلما يفعل رئيس فرقة متسلّقين.

"كانت تتناول الأسرار المقدّسة، كلّ صباحٍ، غير أنّه لم يكن يبدو عليها أيّ ميلٍ لدعوةٍ رهبانيّةٍ؛ لا بل على النقيض من ذلك، كانت تسرّ لي أنّها ستتزوّج يومًا وسترزق باثني عشر ولدًا. كانت شغوفةً بالأطفال، وكانوا، بدورهم، شديدي الوله بها، وكان بعضهم، أبدًا، يجرون في إثرها.

"وأوجز فأقول إنّني لم أعهد لها نظيرًا، لا قبل أن أعرفها، ولا بعدُ.

"وكانت تحبّ السيّدة العذراء حبًّا جمًّا. ويوم أعلنتُ عن رحلة الى لورد، أخذت تصفّق فرحًا... وعشيّة الرحلة، جاءتني تقول إنّ "جان كلود"، أحد شبّان المنطقة قد طلب يدها، وأنّها وعدته بإبلاغ ردّها إليه إثر العودة من لورد. كانت، آنذاك، في السابعة عشرة، ولكنّ الشبّان هنا يتزوّجون في سنٍّ مبكّرةٍ. وقد سألتها: "ماذا يقول لك قلبك، ياكاترين؟" فأطرقت وردّت في حَفَرٍ: "أظنّ أنّ قلبي يقول نعم".

"وكنتُ، آنذاك، أعاني كآبةً بليغةً، أحتفظ بها دفينةً، فقد كان الكاهن الشابّ الذي أُلحق بخدمة رعيّتي، قد هجر كلّ شيءٍ، في أعقاب

قصّة حبٍّ، و لم يكن أَحدٌ في الرعيّة على علمٍ بالأمر سواي. كنت ألاحظ غيابه المتكرّر، الى أَن وافاني كتابٌ منه يبلّغ إليّ عزمه على الهجر؛ وقد قضيت تلك الليلة كلَّها أبكي حزنًا.

"وذهبنا الى لورد خلال أَيَّام الأسبوع، إذ لم يكن ثمّة من يحلّ مكاني يوم الأَحد. كان ذلك في شهر تمّوز، وكان الطقس رائعًا.

"هل لاحظتِ تلك الظاهرة، يا سيّدتي؟ إنّ المرء لا يكاد يدخل الى مغارة الظهور، حتّى يتنسّم رائحة السماء. إنّ هذا الشعور يتولاّني كلّما حججت الى لورد فالأرض قد تحوّلت حيث وضعت العذراء قَدَمها، بحيث يُخيَّل للإنسان أَنّه في الفردوس. ولا يحاولنّ أَحدٌ إقناعي بأَنّها ليست، ثمّة، حاضرةً، ترنو إلينا وتسمعنا...

"وقد أَمضت كاترين ساعاتٍ جاثيةً أَمام حاجز المغارة (كان ذلك الحاجز، آنذاك، لا يزال قائمًا) مستغرقةً في الصلاة. و لم أكن أستطيع زحزحتها عن ذلك المكان حتّى في مواعيد الطعام، إذ كانت تردّ عليّ: "دعني، يا أبتاه، فما زال لديّ الكثير أَطلبه منها". وفي المساء غدتْ وقورةً، بل شبه حزينة. لقد كانت قد اعترفت مع الأخريات، وفي صباح اليوم التالي، حضرت القدَّاس الذي أَقمتُه في المغارة.

"في السيَّارة الكبيرة التي كانت تعود بنا، كان الجميع يتدفّقون بشْرًا، خلا كاترين. وكانت عيناها محاقَتيْن بدوائر تنمّ عن قضاء الليل في سهاد. وقد فاتني أَن أُخبرك أَنّها كانت مزدهرة العافية، و لم أَرَها، يومًا، تشكو تعبًا أو وعكةً.

"وأَخذتُ أُراقبها. وقد اتّضح لي أَنّها، منذ ذلك التاريخ، لم تعد هي الفتاة التي عهدتها من قبل، بل كانت تبدو وكأنّ كاهلها ينوء بوقر سرٍّ باهظٍ. وقد لحظت ذلك أُختي ڤيكتورين أَيضًا، وشرعت تتساءل: "ما الذي يثقل كاهل الصغيرة؟ لقد تبدّلت تمامًا".

"تعرفين الكتمان الذي يفرضه علينا الكهنوت، ومن ثمّ فقد كنت أُراقب وأنتظر فحسب، وبعد أُسبوعٍ، وجدت على منضدتي رسالةً لم تبارحني مذ ذاك. هاكِها".

وأَخرج من كتاب صلواته ورقةً مربّعة التسطير، مطويّةً أربع طيّات، وقد امتلأ أَحد وجهيها بأسطر دُبّجت في جهد وانتظام، وكأنّها وظيفة طالبٍ مجدٍّ. ودفعها إِليّ قائلاً: "اقرئي".

كانت موجزةً، في غير تعقيدٍ. وبعد أَن قرأتها، سألت في صوتٍ خافتٍ:

- هل لي أَن أَنسخها!

- بالطبع هيّا انسخيها

وهذا هو نصّها:

« "أبتِ، عليّ أَن اعترف لك. لقد بلّغت إلى "جان كلود" رفضي (الزواج). في طريقنا الى لورد، كنت أَظنّ أنني سأبلّغ إليه موافقتي. ولكن، في أعقاب ما حدث لم يعد يحقّ لي أن أَتزوّج.

"في قبو الكنيسة، في لورد، اعترفت بين يدي كاهنٍ شيخٍ، أَخذ، فجأةً، يذرف الدموع ويقول لي: "يا ابنتي المسكينةَ، عليك أَن تصلّي

وتضحّي بذاتك من أَجل الخطأة المساكين". وبعد أَن باركني استوقفني قليلاً وقال لي: "يا ابنتي، إِنّي أوكل إِليك كاهنًا يواجه المخاطر، فتوسّلي الى السيّدة العذراء أن تنقذه". وقد صلّيت من أَجل ذلك الكاهن، بعد القدّاس. وحينئذٍ طلبت منّي السيّدة العذراء، بكلّ وضوحٍ: "هل ترضين بتقدمة حياتك من أَجله؟" تردّدت، هنيهةً، فأنا أحبّ الحياة. ولكنّ تردّدي لم يطُلْ، فكيف لي أَن أرفض للسيّدة العذراء طلبًا؟ لقد قلت "نعم". والآن لم يعد يحقّ لي أن أَتزوّج.

"إنّ "جان كلود" شديد الاكتئاب الآن، ولكنّك ستبوح له بسرّي، بعد موتي.

"لقد أَفهمتني العذراء القدّيسة أُمورًا أُخرى كثيرةً، أَهمّها أنّنا لا نستطيع إِنقاذ الآخرين إِلاّ بفضل التضحيات.

"شكرًا، والى اللقاء، أَبتِ". »

(كاترين)

"لست أُخفي عنك، سيّدتي، أَنّني، لأوّل وهلةٍ، لم أَحمل الأمر محمل الجدّ. فقد كانت الصغيرة في عمرٍ يطغى فيه الخيال. ثمّ إِنّني لم أُصدّق أَنّ العذراء قد كلّمتها، مثلما كانت تكلّم برناديت. وقد قلت لها أَلاّ تغالي في الانفعال، فربّما كان الأمر مجرّد وهمٍ. وكنت أَتحاشى أَن أَقسو عليها أو أَن أحزنها؛ وإِنّما حرَّضْتُها على الصلاة بحرارةٍ من أَجل ذلك الكاهن المسكين. وكانت هي تصغي إليّ، وقد أمالت رأسها إلى

اليسار، وفق عادةٍ ألفتها، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ رقيقةٌ مبهمةٌ، لم تكن تبارحها، منذ الرحلة إلى لورد.

"وفي غضون أَشهرٍ قليلةٍ أودى بها سرطان دمٍ صاعقٌ. وقد أَنذرني الطبيب، منذ زيارته الأولى لها، أَن لا أَمل في شفائها. وبقدر ما كانت حزينةً قبل مرضها، غدت فرحةً، بعده. وكانت تقول لي: "أترى الآن، أبتِ، أنّها كانت العذراء حقًّا؛ وأَنّني لم أَخدعْك؟". وكان في صوتها نبرةَ جَذَلٍ وعبَثٍ.

"وقد تحوّل سريرها الصغير إلى منبر حقٍّ. ولكنْ لم تكن تَعِظ بالكلام، بل بالقدوة. ولم يكن أَحدٌ سواي عالمًا معاهدتها مع العذراء. وقد التزمت هي الصمت حوله حتّى موتها؛ ولم تَبُحْ بشيءٍ منه حتّى ل"جان كلود" الذي كان غالبًا ما يعودها.

"كان الشبّان يتناوبون حول سريرها، ولا يعدّون السهر عليها مشقّةً، بل حظوةً. فمع بساطتها الفائقة، كان ينبعث منها إِشراقٌ مذهلٌ. وغالبًا ما جال في خاطري، وأَنا أَرنو إليها، وقد طوّقت معصمها بمسبحتها، وافترّ ثغرها عن ابتسامةٍ رائعةٍ، أَنّها شعاعٌ صغيرٌ من السيّدة العذراء.

"لديّ دفترٌ صغيرٌ كنت أُدوّن فيه، يومًا فيومًا، أَقوالها المغرقة في البساطة وملاحظاتي. ففي أَثناء مرضها اكتست الرعيَّة وجهًا جديدًا، وبدا لي أَنّ الناس باتوا يخجلون من العيش في الخطيئة، وهم على مقربةٍ من كاترين. ولم أستمع، في حياتي، إلى اعترافاتٍ كتلك التي استمعت إِليها في تلك الفترة.

"كان احتضارها مضنيًا، وقد آزرتُها بكلّ ما أوتيتُ من طاقةٍ... وكلّما عاودتني تلك الذكرى خنقتني العبرات... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى مدينة تارب (مدينةٌ صغيرةٌ مجاورةٌ للورد). وفي الواقع، قد انتهت قصّتي، تلك القصّة التي كانت، في حياتي الكهنوتيّة، نعمةً جليلةً".

– ولكنّك، أَبتِ، قد أغفلت نقطةً جوهريّةً. فما الذي حلّ بذلك الكاهن؟

– لست أدري، ذلك سرّ السيّدة العذراء. أمّا كاترين، فقد كانت، في نزاعها، وحتّى بعد فقدانها الوعي، تبدو وكأنّها تجهد في انتزاع تلك النفس من براثن الجحيم.

– وماذا عن معاونك، الكاهن الشابّ؟

– ليتمجّد الله! لقد عاد إلى رعيّته، وإلى حياةٍ كهنوتيّةٍ لائقةٍ.

– ألم يكن الأمر، ربما، يتعلّق به؟

– لقد خطر لي ذلك، أَيضًا. ولكنّني لست أَعهد أنّه ذهب إلى لورد، بعد الهجرة.

– إذن، هذا سرّ السيّدة العذراء؟

– وسرّ كاترين أَيضًا. فقد كانت قادرةً أَن تنتزع من الموت الأبديّ أكثر من واحدٍ، وتصيب هدفين بحجرٍ. على أَيّ حالٍ، منذ موتها، كثيرًا ما أَستنجد بها، في صلواتي، وهي أَبدًا تستجيب لي. لقد جعلتني أُدرك، على وجهٍ أَفضل، معنى شركة القدّيسين.

– وماذا عن "جان كلود"؟

– لقد أَفضيت إليه بالحقيقة، واستحلفته بكتمانها، بعد موت كاترين. كان لا يجد إلى العزاء سبيلاً، غير أَنّ الزمن قد شفاه. إنّه الآن متزوّجٌ، وربّ أُسرةٍ مثاليّةٍ. إنّه، بعدي، الوحيد الملمّ بالسرّ. وها أَنت الثالثة، في الاطّلاع عليه.

ثمّ نهض محدّثي لإنزال حقيبته، ودسّ كتاب صلواته في جيب جبّته... فقد كان القطار يدخل إلى محطّة تارب. وقال مودّعًا:

– بعد نصف ساعةٍ ستبلغين لورد. بلّغي إلى أمّنا الحنون تحيّاتي.

– وماذا عن دفاتر ملاحظاتك؟

– عليك أَن توافيني لكي تأخذيها. إليك عنواني. ولكن عليّ، قبل ذلك، أَن أتأكّد من قدرتك على كتمان السرّ.

– وهل ترتاب في ذلك؟

فقال مبتسمًا:

– ومن يستطيع ضمان الصحافيّين؟

كنت قد دوّنت عنوانه، ولكنّني لم أستطع موافاته للحصول على دفاتر ملاحظاته. وقد ظلّت رسائلي له، وتمنّياتي بالعام الجديد، بلا ردٍّ. وتنامى إليّ، فيما بعد، أَنّ الأب س، خوري ز... قد تُوفّي. ومن ثمّ، لا يسعني الإفضاء باسمه، بل أَقتصر على سرد روايته، على نحو ما رواها لي، في قطارٍ سريعٍ، بين باريس وتارب.

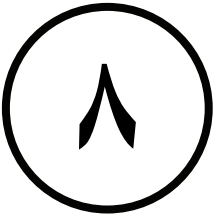

٨

مائدة الخطأة

مائدة الخطأة

كان مفتّش القطار متجهّمًا كالجوّ الغائم، وهو يرفع المراقد الليليّة في المقطورات، في حين كان القطار ينحدر مسرعًا، عبر جبال الأپينان، تحت وابلٍ من المطر. وتطلّعت إلى ساعتي: بعد قليلٍ سيكون لنا توقّفٌ طويلٌ في ميلانو. وكنّا في يوم الأَحد الأَخير من تشرين الأوّل، وهو عيد يسوع الملك. وأَجريت حسابًا ذهنيًّا خاطفًا فتبيّن لي أَنّني، إن أَنا استقللتُ سيّارة تكسي لاستطعت حضور قدَّاسٍ قبل انطلاق القطار من جديدٍ. ولكن بقيت، ثمّة، قضيّةٌ دقيقةٌ: إلى من سأعهد بأمتعتي؟

في الزاوية المحاذية لتلك التي كنت أَجلس فيها، كانت تغفو سيّدةٌ فتيّةٌ قاسية القسمات، متوتّرة الملامح، في حين كان إِيطاليَّان في الطرف الآخر يلتهمان مجلاّتٍ مصوّرةً، ويتبادلان تعليقاتٍ حول بطولاتٍ رياضيّةٍ. واستقرّ خياري على المرأة. كان القطار قد شرع يتسلّل إلى المحطّة، عندما فتحت عينيها. فبادرتها بالإعراب عن رغبتي في الإِفادة من

فترة التوقّف لكي أَمضي إلى الكَنيسة، وأَضفت: "أَترك أمتعتي... ". فأدركت قصدي، وابتسمت، وردّت في شيءٍ من التهكّم: "أَرجو ألاّ يكافئ العليّ غيرتك بفقدان خيراتك الأرضيّة". كانت تتكلّم بلكنةٍ أَجنبيّة، مؤكّدةً كلّ مقطعٍ من كلماتها، ثمّ أردفت: "وعلى أَيّ حالٍ، أَنت لا تعرفينني!" وإذ لم يكن لديّ دقيقةٌ واحدةٌ أَهدرها، أَجبتها، على الفور: "بلى وإِنّي أَثق بك". وبسرعةٍ، أَلقيت على المقعد بضع مجلاّتٍ، كي أَحتفظ بمكاني مشغولاً، واندفعت نحو المخرج.

في كنيسة القدّيس شارل بورّوميه كانوا قد بلغوا من القدّاس صلاةَ التقدمة. تناولت، وعدت لاهثةً، في اللحظة التي كان فيها القطار يهمّ بالانطلاق. وبدت لي المرأة الشابّة التي أوكلت إِليها أمتعتي ظاهرة التوتّر:

– لو أَنّك تلكّأت دقيقةً واحدةً لفوّتِ القطار. فما كان عساي أَن أفعل بحقيبتك؟

– ولكنّني لم أُفوّته. وما جدوى التحسّر على ما لم يحدث؟

– بالطبع، لقد أَبرمت مع السماء عهدًا. أَمّا أَنا فلست أومن بشيءٍ من ذلك.

ودنوت إِليها، في حزنٍ، وقلت:

– أُشفق عليك.

وانتفضت، وكأنّ سوطًا لسعها، وهمهمت بصوتٍ أَجشّ:

– أَنا لست بحاجةٍ إلى شفقة أَحدٍ.

ولم أجرؤ على إجابتها، فنظرتها التي تحاكي نظرة حيوانٍ مطاردٍ، قد استدعت إلى ذاكرتي، فجأةً، صورة المعتقل. ولا ريب أنّ النفس المكلومة التي تتخبّط تخبّط عصفورٍ في قفصٍ أكثر مدعاةً للشفقة من جسدٍ يُسام العذاب. فما السبيل إلى إنقاذها؟

كان جليًّا أنّ رفيقتي المجهولة لم تكن راغبةً في متابعة الحوار. في أثناء غيابي كانت قد تناولت من المجلاّت التي ألقيتها على المقعد، العدد ٢٤ من مجلّة "الله الحيّ" المتضمّن مقالاً رائعًا لمارسيل موريه بعنوان "مائدة الخطأة". هل هي كانت تقرأ، أم تتظاهر بالمطالعة كي تبرّر صمتها؟ على أيّة حالٍ، كنتُ شديدة الأسف، لكوني ربّما جرحتها بأقوالي، فسألت القدّيسة تيريزيا أن تسوّي الأمر.

قُبيل وصولنا إلى بيرن، أخذت أتأهّب للنزول، فأعادتْ لي المجلّة، من غير أن تتلفّظ بحرفٍ. ولكن عندما توقّف القطار، خاطبتني بغتةً قائلةً:

- أعطيني عنوانك.

وقد جعلتني نبرتها الآمرة أتردّد، لحظةً... غير أنّ الحرب كانت قد انتهت، ولم يعد في الكشف عن الهويّة ما يُخيف. وإذ لم تكن معي بطاقتي الشخصيّة، ناولتها جواز سفري، فتأمّلته بعنايةٍ، ولم تدوّن شيئًا.

ثماني سنواتٍ انقضت، منذ ذلك اللقاء الخاطف، الذي أخذ يمّحي من ذاكرتي، عندما تلقّيت يومًا، رسالةً تعذّر عليّ، أوّل الأمر، فهمها. فقد كانت مكتوبةً باللغة الألمانيّة، وصادرةً عن ديرٍ أجهله، وتحمل

توقيع راهبةٍ لا يعني لي اسمها شيئًا. غير أَنّني، منـــذ الأســـطر الأولى، ارتعشت، فقد كان مطلعها: "عندما التقيتك في القطار، لعدّة سنواتٍ خلت...".

وقد أَتاحت لي متابعة قراءة الرسالة تعرّف هويّة موقّعتـــها. لقـــد كان الخطّ، أكثر من فحوى الرسالة، ينمّ عن سلامٍ داخليٍّ عميقٍ. لن آذن لنفسي بأيّ تحوير في نصّ الرسالة، إلاّ أَنّني سأقتصر علـــى إِيجـــاز بعض المقاطع المسهبة، ليس إِلاّ. وهاكم الرسالة:

« "عندما التقيتك في القطار، لعدّة سنواتٍ خلت، كنت على شفا الهاوية وطريدة اليأس؛ فالحرب قد سلبتني كلّ شيءٍ: الأسرة، والثروة، وحتّى الشرف؛ فقد نشأت على عبادة هتلر. وعام ١٩٣٩، كنـــت في الثامنة عشرة، مفعمة القلب كبرياءً وحقدًا.

"ثلاثةٌ من إِخوتي وقعوا على الجبهة الروسيَّة، منهم اثنان اعتُـــبرا مفقودين. وقد قتل الأميركيّون أخي الرابع، رميًا بالرصاص، بعـــد أن أَدانوه بجرائم حربٍ. أَمّا أَنا، فلا أستطيع القول إنّني كنـــت، في تلـــك الأثناء، أَعبث. إذ كنّا نعتقد، حقًّا، في تلك الحقبة، واجبًا علينا أَن نهب أَلمانيا أبناءً. كنّا نعيش في غمرة إِثارةٍ وبيلةٍ، وفي خدمة "الأبطال". ولقد انتهى بنا ذلك، في الواقع، إلى انحطاطٍ جسديٍّ وأخلاقيٍّ. لقد أَنجبـــتُ ولدين "مجهولي الأب"، وقد سُحقا كلاهما، في أثناء غارةٍ، في إِحـــدى دور الحضانة الحكوميّة.

"عند انتهاء الحرب، بدأت أَصحو من ذلك الكابوس الرهيب؛ وإن كان يُحكَم على الشجرة من ثمارها، فقد كنت أَتبيّن إلى أَين أفضت بنا إِيديولوجيّة العنجهيّة. وفي أَثناء محاكمة رابع إِخوتي، بدأت أدرك أهوال المعتقلات. أَهذا هو، إِذن، كان "شعب الأسياد" الذي حلمنا به؟ كنت أعاني الألم والخزي، ولكن هل يسوغ هجر مركبٍ يواجه الهلاك؟ لقد كنت، وما زلت، ألمانيّةً: في السرَّاء وفي الضرّاء.

"منذ حداثتي، أَنكرت الله، وأَظنّ أَنّ مؤلّفات روزنبرغ هي التي قضت فيّ على إِيمان أَجدادي. وقد فاتني أَن أَقول لك إنّ والديّ المتحدّرين من أَصلٍ كاثوليكيٍّ، كانا من "الطراز العتيق"، ولا يشاطراننا آراءنا. وقد ماتا من الأسى، عام ١٩٤٤، ولم يفصل بين وفاة كلٍّ منهما سوى فترةٍ قصيرةٍ.

"كانت الحرب قد انتهت، ولا بدّ لي أَن أعيش. أَوّل الأمر بدأت أَعبث، لكي أسلو، ولم أكن أَحفل بشيءٍ، فهويت إلى دركات المجون والانحطاط، في حمّى من الاندفاع. وكنت أستمدّ من انحطاطي متعةً. إِنّك تعرفين مصير السكرتيرات المستهترات مع رؤساء المؤسّسات. وكان همّي أَن أتنقّل من مؤسّسةٍ إلى أُخرى.

"يوم التقيتك، كنت عائدةً من روما، حيث كنت في مهمّة عملٍ. ولا أخفي عنك أَنّ الآثار الوثنيّة كانت تثيرني، بيد أَنّ المدينة المقدّسة لم تكن تستفزّ لديّ سوى الازدراء. وفي تلك المدينة تبلور عزمي على

الانتحار. غالبًا ما كانت خاطرة الانتحار قد راودتني ولا ريب أنّك تعلمين أنّ مبادئنا لا تعارضه. وفي الواقع، منذ نهاية الحرب، كنت أرجئ التنفيذ، ولكنّ الحبل كان يزداد حول عنقي شدًّا، يومًا إثر يومٍ.

"طالما كنت أحتفظ ببعض احترامٍ لنفسي ولسلوكي، ظللت متشبّثةً بفكرة الانتحار، ولكن، شيئًا فشيئًا، حلّ الاشمئزاز لديّ محلّ الثقة. وصرت أرتاع من نفسي كلّما تفحّصتها عن كثبٍ، إذ تتكشّف لي كذبة حياتي الكبرى. ومن حيث لم أحسب، تبيّنتُ ثغراتٍ في جدار إلحادي. لم أحاول تقصّي ذلك الأمر. ولكنّني، في أفضل الأحوال، كنت أتقبّل فكرة إله العدل لا إله الرحمة، وكنت أقول لنفسي إنّ العدل لا يتيح لي أيّ رجاءٍ.

"يوم التقيتك، كنت قد وطّدت العزم على إنهاء حياتي. وأعترف، بصدقٍ، أنّ مخاطرتك بالذهاب لاقتناص قدّاسٍ ومناولة قد أمتعتني، شأنها شأن أيّة مسابقةٍ رياضيّةٍ. ولكان الأمر قد توقّف عند هذا الحدّ، لو أنّك لم تتركي على مقعدك ذلك العدد من مجلّة "الله الحيّ". فقد أخذت أقلّب صفحاته، عندما شدّتني بضعة أسطرٍ؛ وقرأت تكرارًا ذلك النصّ المدهش الذي انحفر في ذاكرتي بحروفٍ من لهبٍ. إنّك تعرفينه، ومع ذلك، ها إنّي أورده من جديدٍ:

"يا ربّ، إنّ طفلتك قد أدركت نورك الإلهيّ! وهي تلتمس منك الصفح عن إخوتها الملحدين، وفي سبيل ذلك، هي ترضى أن تأكل،

طالما أنت شئت، خبز الألم، ولا تبتغي الابتعاد عن تلك المائدة الحافلة بالمرارة التي عليها يأكل الخطأة المساكين، قبل اليوم الذي أنت حدّدته. ولكن ألا يسعها أن تقول باسمها وباسم إخوتها المذنبين: ارحمنا، يا ربّ، فنحن خطأةٌ مساكين؟ يا ربّ، حرّرنا من ذنوبنا، واجعل جميع الذين لم يُنرهم مصباح الإيمان المضيء، يرون أخيرًا تألّقه! يا يسوع، إن كان يتعيّن على نفسٍ تحبّك أن تطهّر المائدة التي دنّسوها، فأنا أرتضي أن أتناول عليها، وحدي، خبز الامتحان، إلى أن يروق لك إدخالي إلى ملكوتك النيّر، والنعمة الوحيدة التي أسألك هي ألاّ أُهينك أبدًا..."[1].

لقد كادت الصدمة تصعقني. وقد شعرت أنّ تلك الكلمات كانت تعنيني شخصيًّا، وأنّها كُتبت من أجلي. وفي تلك اللحظة، ارتجّت كلّ معتقداتي الثابتة. من هي تيريز تلك التي كانت لا تتورّع عن الجلوس إلى مائدتي، وعن تناول خبزي، خبز العذاب؟! ثمّ تابعت القراءة[1].

"إنّها لا تنتصب واقفةً، ولا تتعالى، بقداستها، على الخطأة المساكين، بل إنّ الله نفسه قد وضعها إلى مستواهم، وإن هي اقتسمت معهم خبز الألم، فإنّما ذلك نتيجةٌ مباشرةٌ لتضحيتها على هيكل الحبّ. وفي المحرقة المقدّمة للعدل الإلهي، ثمّ، من جهةٍ، الضحايا التي تتلقّى

---

[1] نصّ للقدّيسة تيريز الطفل يسوع.

[1] تعليق كاتب المقال على نصّ القدّيسة تيريز

ضربات الله المنتقم، ومن جهةٍ أُخرى، الخطـــأة المـــساكين. وحينئـــذٍ القرابين النقيّة المنزّهة من كلّ شائبةٍ تهتف: "ارحمهم يا ربّ، وبرّرهم". أَمّا في المحرقة المقدّمة للحبّ، فالضحيّة تنسى نفسها نـــسيانًا مطلقًـــا، وتتوحّد مع الخطأة، بحيث لا تستطيع أَن تتضرّع إلى الربّ إلاّ إِذا قرنت اسمها باسم إخوتها الخاطئين: "ارحمنا، يا ربّ، وبرّرنا".

"وهكذا إِذن لم يكن كلّ رجاءٍ قد ضاع، ولم يُقِم هواني حواجز بين الله ونفسي، بل على النقيض من ذلك، كان الدُّوار يتولاّني، وأَنـــا أَقرأ أَنّ خطاياي تجلب لي الرحمة... في أَثناء غيابك دوّنت في مفكّرتي، بيدٍ مرتجفةٍ، بعض مقاطع ذلك النصّ المثير، وكم قد أَعدت قراءة تلك الأسطر، مذ ذاك.

"أَجل، لكي يرضى الحبّ رضًى تامًّا، عليه أَن يتّضع إلى مستوى العدم، ويحيل هذا العدم نارًا".

"كنت أَشعر أَنّ القلاع السرّيّة التي أَحتمي وراءها قد انهارت. منذ سنين، كنت قد تحوّلت عن الله، وذات يومٍ، كتبت إلى صديقةٍ كانت قد حدّثتني عن الله هذه العبارة الخرقاء: "حتّى لو كان الله موجـــودًا، فليس بيننا أَيّ عاملٍ مشترك". وإذا بهذه المجهولة – لقد كانت القدّيسة تيريز مجهولةً لديّ آنذاك – تؤكّد لي نقيض ذلك تمامًا: فقانون جاذبيّة الحبّ يتحرّك في اتّجاه الخطيئة "والهوّة تجذب الهوّة".

"وها إنّني. بعد ثماني سنواتٍ، كلّما تذكّرت تلك المطالعة في زاوية

مقطورةٍ، في محطّة ميلانو، انفجرت بالبكاء، ولكنّني الآن أبكي حبًّا. ففي تلك الساعة المباركة، كان الله ينتظرني، والقدّيسة تيريز تبلّغ إليَّ رسالتها. "وليس من حبٍّ أعظم من أن يبذل الإنسان حياته في سبيل من يحبّ". ولنبدأ بالربّ يسوع: فهو لم يحبّ قدّيسين بل خطأةً. وإذن، كان لي حقٌّ بحبّه. وبقدر ما كنت تعيسةً وخاطئةً، كان حقّي في حبّه أكبر. كنت أرى وجهًا للعالم معكوسًا، وقد انقلب رأسًا على عقبٍ سُلَّم قِيَمي. ومنذ تلك اللحظة شرعت نفسي المسكينة تهتف إلى الله، وانبعث رجائي الميت.

"وحينئذٍ أنتِ عدتِ، وقد جهدتُ في أن أُخفي عنك تأثّري. وفي الواقع كنتُ قد فقدتُ معنى الوقت، ولم أَلحظ أنَّ القطار كان يهمّ بالانطلاق. غير أنّني كنت ما أزال على قدرٍ كبيرٍ من الكبرياء، بحيث لم أعترف لك باضطرابي. لقد كانت الصدمة عنيفةً، إلاّ أنّني كنت أحاول التشبّث بموقفي. ثمّ أعدت قراءة المقال، وعندما سألتك عنوانك، كان يراودني شعورٌ مسبّقٌ مبهمٌ بأنّني سأراسلك يومًا.

"القدّيسة تيريز قد أشرعت لي الطريق، وتولّى الله الباقي. ولا بدّ أنّك تدركين أنّي لست أرضى بأنصاف الحلول، بل الكلّ للكلّ. وها أنذا أكتب إليك من مرفأ السلام هذا. وأستطيع القول إنّني سعيدةٌ".

ولقد بادرت بالردّ على تلك الرسالة المؤثّرة، إلاّ أنّ الأخت تيريز – ذلك كان اسمها الرهبنيّ – لم تجب، فهي بعد أن أفصحت لي عن

كلّ ما كان عليها قوله، عدّت، بلا ريبٍ، كلّ ما هو سوى ذلك، خليقًا بالصمت.

ومنذ أسابيع، وردتني من رئيسة ديرها رسالةً تبلّغ إليَّ نبأ وفاتها، في أعقاب سرطانٍ منتشرٍ سبّب لها، سحابةَ أشهرٍ طويلةٍ، آلامًا مبرّحةً، غير أنّها قد "تقبّلتها بفرحٍ عارمٍ، وكان الفرح هو طابع حياتها الروحيّة المميّز" وقد وجدوا بين أوراقها ظرفًا دُوّن عليه عنواني، وصورة كتبت عليها بالألمانيّة، وبيدٍ مرتجفةٍ، هذا النصّ الذي أترجمه حرفيًا:

"بين بيرن وميونيخ، أَلفَيْتُ نفسي أمام هوّة نارٍ ألقيت فيها خطاياي واحدةً فواحدةً، ورأيتها تحترق احتراق حطام القشّ. وأدركت كنه الحبّ الذي يصفح. وعندما اعترفت، بتاريخ... انغمستُ مجدّدًا في النار، ومذ ذاك أصبحت النار هي مجالي، النار التي تحرق وتكمل، عندما نستسلم لفعلها، ونتقبّل الموت في لهيبها. إنّما جهنّم هي كلّ ما فينا يرفض، رفضًا نهائيًّا، نيران الحبّ، هي كبرياؤنا المتقوقعة على ذاتها. هي روح الامتلاك المريع الذي يكتنز الخطيئة...

"يا إلهي، احمِنا من نار جهنّم، بدفعنا، منذ هذه الدنيا، إلى نيران الحبّ. ليس للخاطئات مثلي أنصاف حلولٍ، ونحن كثيراتٌ".

أيّتها الأخت تيريز، هل أنا أخون رغبتك في الصمت، بنشري قصّتك ووصيّتك! ألستِ واحدةً من تلك النفوس الصغيرة السائرة في إثر شفيعتكنّ القدّيسة، في تقدمةٍ للحبّ مطلقةٍ! إنّها، بجرأةٍ مقدّسةٍ،

تقلب، رأسًا على عقب، نظريّاتنا الفرّيسيّة، وتخاطب الخطأة، وتدعوهم، دون سواهم، وكأنّ هوى الشرّ المحفور في نفسٍ ما تجعلها أكثر تقبّلاً لنيران الحبّ. "إنّ الله الذي يُظْهِر، على خير وجهٍ، قدرتَه، عندما يصفح... قد اختار، مرَّةً أُخرى، لإِتمام عمله، تلك التي "لم ترفض، قطّ، للحبّ طلبًا". »

مجلّةٌ ملقاةٌ على مقعد قطارٍ دوليٍّ، أَو صورةٌ، وأَحيانًا كلمةٌ مبثوثةٌ في الهواء... مثل تلك "الوسائل الفقيرة" هي التي، في ملكوت النفوس، تثبت نجاعتها. وإنّ ما ندعوه "صدفةً" إِن هو، غالبًا، سوى وجهٍ مقنّعٍ من وجوه الرحمة الإلهيّة.

٩

كحول وفطائر

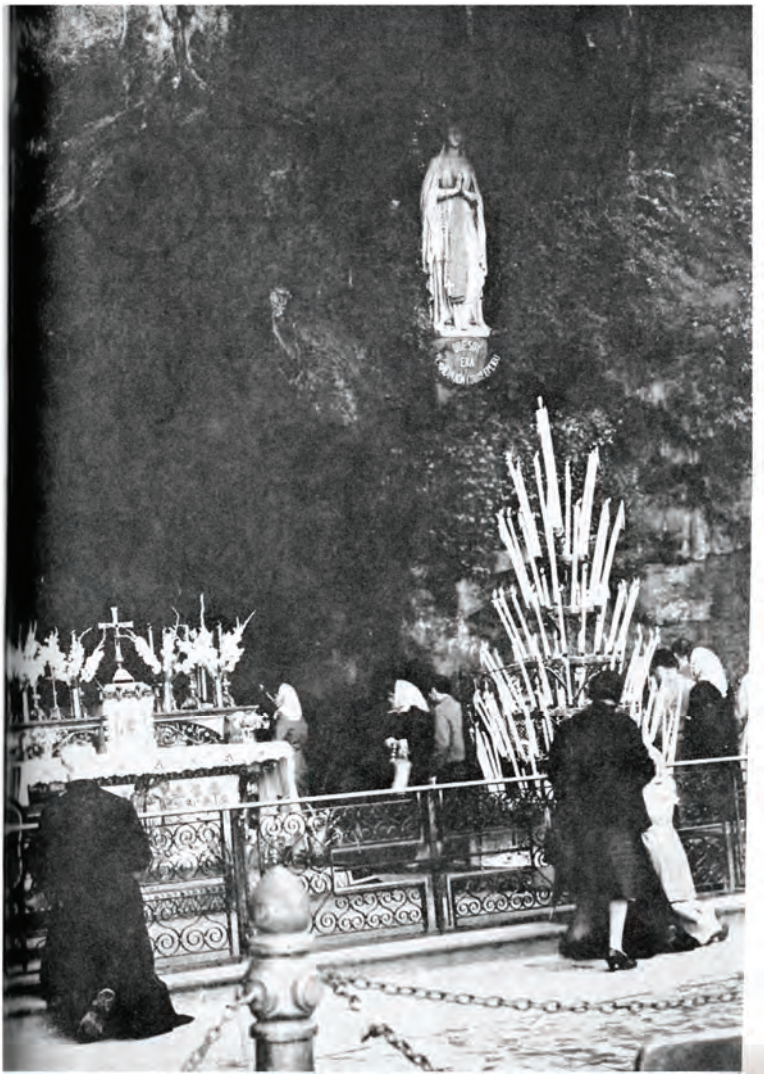

كحولٌ وفطائر

صفّر القطار طويلاً قبل أَن يتوقّف وسط السهل، عند حدود الاتّحاد السوفييتيّ، واستيقظ ركّاب مقطورةٍ "قاسية" – على نحو ما توصف المقطورات ذوات المقاعد الخشبيّة – مذعورين. وعلى ضوء الفجر المكفهرّ الشاحب، بدت وجوه الرجال غير الحليقة، تقطر ملَلاً. كان معظمهم من الجنود الذين استَدعاهم "الوطن الأمّ" والذين كانوا، قبل لحظاتٍ، يشخرون شخيرًا مدوّيًا، وقد أَنهكهم التعب. وإلى جانبي النافذة كانت امرأةٌ يصعب تقدير عمرها، ورجلٌ ما زال في مقتبل العمر، يرتدي زيًّا بكّينيًّا، يتحادثان بصوتٍ خافتٍ. وقال أَحد الجنود:

– استعجل يا رفيق، فهم لن يلبثوا أَن يصلوا.

– فليأتوا! لست أَحمل أَيّ شيءٍ مهرّبٍ.

– وأنا كذلك، ما لم يقرّروا مصادرة القودكا البولونيّة.

– الأَفضل، إِذن، أَن نرتشف بضع جرعاتٍ، فإن هم تعنّتوا،

نكون قد كسبناها. نخب صحّتكم، أيّها الرفاق.

وابتسم الرجل الجالس إلى النافذة ابتسامةً خاطفةً، عندما رأى المرأة الجالسة إزاءه تدسّ تحت المقعد زجاجةً مقشَّشةً ملفوفةً بورقٍ. وسألها:

– أما زلت، في سنّك، يا أُمّاه، تقدّرين المشروبات اللاهبة؟ فاحمرّ وجهها، وتردّدت هنيهةً، ثمّ أجابت بصوتٍ خفيضٍ:

– هل ترغب في تذوّقه؟

لقد كانت تحيّره، تلك المرأة. مع أنّه، وهو "پيوتر إيڤانوڤيتش"، الميكانيكيّ الاختصاصيّ، كان كثير التنقّل، وبفضل مزاجه المرح والفضوليّ، كان غالبًا ما يثرثر مع رفاق سفره. لقد كان عضوًا في الحزب، وبالتالي فهو لم يلقَ كبير مشقّةٍ في زيارة أبناء عمّه الذين انزووا في أعماق سيليزيا، في أعقاب الهجرة الكبرى، عام ١٩٤٥، ولكنّه، لكونه أوكرانيّ المنبت، كان قد اصطدم بجمٍّ من المشاكل العمليّة التي استثارت تساؤلاته، ولا سيّما بعد أن تبيّن الفجوات الشاسعة بين أوضاع المناطق المختلفة، فجواتٍ تتعارض والإيديولوجيّة التي كان يؤمن بها، والتي كانت تصوّر له أنّ على الديمقراطيّات الشعبيّة أن تتشابه كالتوائم. بيد أنّ أولئك البولونيّين لا يكفّون يخلقون المفاجآت.

هذا ما كان يحاول شرحه للمرأة الجالسة إزاءه، التي لم تنمْ، وما انفكّت تحرّك شفتيها، بشكلٍ مضحكٍ، تمامًا مثل عمّته "أناستازيا" التي، للأسف، كانت قد فقدت أسنانها. وقد استهلّ حديثه معها بقوله:

– بما أنّك تروين لنفسك الحكايا، يا خالة، فهذا يعني أنّك غير راغبةٍ في النوم، وكذلك هو شأني؛ ألا فلنثرثر قليلاً.

لقد حدجته بنظرةٍ متفحّصة، و لم تُجبْ. في تلك الأثناء، كانت تتصاعد من أرجاء القطار، الموصد بإحكامٍ، صيحاتٌ وأصداء نقاشٍ عنيفٍ؛ وشيئًا فشيئًا، غدت الأصوات أشدّ وضوحًا. كان الجنود قد فرغوا من معاقرة الخمرة، وأحكموا إغلاق حقائبهم اليدويّة، وراحوا يستطلعون الأخبار. وظلّ "پيوتر إيڤانوڤيتش" وحيدًا إزاء المرأة المجهولة، التي صبغت وجهها، فجأةً، لطخٌ حمراء، معبّرةً عن تأثّرٍ كثيفٍ. وسألها:

– إن لم تكن الزجاجة تحتوي على الكحول، فعلامَ خوفك، يا أمّاه؟

واستمرّت تحرّك شفتيها، وهي تحدّق فيه، فاستأنف السؤال.

– ما لك تتمتمين هكذا؟ أليس الأفضل لك أن تنامي مثلما يفعل الفلاّحون المسيحيّون الشرفاء؟

– إنّني أُصلّي. ولكن هل أنت تفهم ما معنى الصلاة؟

– أتظنّينني أحمق؟ إنّ عمّتي "أناستازيا" تصلّي طوال النهار. وليس لديها، المسكينة، ما تفعله سوى ذلك. إنّها من العهد البائد. ونحن ندعها وشأنها. فالناس الذين في مثل أعماركم لا يستطيعون أن يتغيّروا. ومن جهتي لست أرى في ذلك أيّ سوءٍ، إذ يحقّ للمرء أن يسلّي نفسه بحكايا صغيرةٍ، أليس كذلك؟ وعمّتي "أناستازيا" طيّبةٌ كالخبز الطازج. ولكن أنت، ما اسمك؟ أنا أُدعى "پيوتر إيڤانوڤيتش".

- أَنّا "نيكولايــقــنا"، خادمتك.

كان رجال الجمارك يفتّشون المقطورة المجاورة، ومرّ رجلٌ يجري، وينذر:

- إنّهم يبحثون تحت المقاعد.

كانت "أَنّا نيكولايــقــنا" تمسك، بيدٍ متوتِّرةٍ، على مقبض سلّة زادها. وكانت تفتح وتغلق فمها مثل سمكةٍ خــارج المــاء. وأَخــيرًا تكلّمت بصوتٍ خافتٍ، وبسرعةٍ:

- يا "پــيوتر إيــقــانوڤــيتش"، بحقّ عمّتك "أَناستازيا"، قــل إِنّها تخصّك.

ولم يدرك أوّل الأمر، فسأل:

- وما هو الذي يخصّني؟

- الزجاجة المقشّشة.

- وهكذا أَتعرّض، أَنا، للمشاكل.

- لقد قلت لك إنّها لا تحتوي على الــقــودكا، بل على الماء القراح.

- أَثبتي لي صحّة ذلك.

فأخرجت الزجاجة وفتحتها وقالت:

- تفضّل.

ورشف الرجل جرعةً، ثمّ بصقها في اشمئزاز:

- أَنت صادقةٌ، إِنّه ماءٌ

– وقد بصقتَه، أَيّها التعيس؟! ولكِنّك لم تكن تعلم. إِنّــه مــاءٌ عجائبيٌّ، ماء نبعٍ يخصّ أمّ الله، يشفي الأجساد والنفوس. أرجــوك أَن تعدني، إذا ما أصابني مكروهٌ، أَن تحافظ عليه محافظتك على كنزٍ، وأَن تأخذه إلى شارع "موتشنايا" رقم ٤٣ في "لــقــوف"، وسيجزل لك الله المكافأة. إِنّ هذا الماء قادمٌ من بعيدٍ، من بعيدٍ جدًّا، مــن فرنــسا، حيث توجد قرية ظهرت فيها السيّدة العذراء البريئة من كل دنسٍ لفتاةٍ صغيرةٍ. تلك القرية تدعى "لورد". هيّا، عدني بسرعةٍ، فها هم قادمون.

– وإن أَنا ألقيت في المجاري ماءك العجيب؟

– حينئذٍ ستعاقبك السماء، لأَنّك بتّ تعلم.

وظهر مفتّشٌ عند فرجة الباب، وقد أَدار ظهره، وكأَنّــه ينتظــر أَحدًا. وسأل الرجل:

– هل قلت لي الرقم ٤٣؟

فأكّدت بإِيماءةٍ من رأسها.

ودخل المفتّش برفقة رجل الجمارك.

– جوازاتكم! هل هناك ما تصرّحون به؟

– عليكم التحقّق، فهذه مهنتكم، قال پــيوتر إِيــقــانوڤــيتش.

وفتح المفتّش جواز سفره، وفي الحال ختمه قائلاً بتهذيبٍ:

– حسن أَيّها الرفيق. وأَنت أيّتها المواطنة؟

فأشارت المرأة إلى حقيبة ضخمة نصف مفتوحة، في حين كانت سلّة زادها المهملة في زاويةٍ تسفر عن بعض رزمٍ ملوّثةٍ بالدهن.

وإذن فأنت قادمةٌ من كراكوفيا، وتقصدين لفوف؟ ألا قولي هل الطعام جيّدٌ في بولونيا؟

فأجابت على الفور:

– ليس أفضل ممّا عندنا.

وفيما كان المفتّش يتفحّص الجواز صفحةً صفحةً، مدّ رجل الجمارك يده إلى سلّة الزاد، وقال، وهو يروز فطيرةً شقراء مستديرةً:

– يبدو أنّها نفيسةٌ، فطائرك. بمَ هي محشوّة، أباللحم أم بالملفوف؟

كان التلميح صريحًا، وكان على المرأة أن تقدّم له بعضًا منها، بكياسةٍ، ولكنّها لم تتحرّك، فبدا على الرجل غيظٌ واضحٌ، وقال بحدّةٍ:

– لنرَ، إذن، لنرَ.

وتناول، بغتةً، فطيرةً، وقسمها قسميْن، فانتشر محتواها على الأرض محدثًا رنّةً معدنيّةً. فالتفت المفتّش الذي كان قد دمغ الجواز لتوّه، وقال ساخرًا:

– يا لها من حيلةٍ مضحكةٍ!

ثمّ انحنى فالتقط ميداليّاتٍ صغيرةً مصنوعةً من الألومنيوم، وقال:

– أهذا، إذن، ما تهرّبينه، أيّتها البقّة العجوز؟

أَمّا رجل الجمارك النهِم، فبدا وكأنّه يحاول محو لحظة ضعفه السابقة، بغيرةٍ صاخبةٍ. وراحت الفطائر المفزّرة تنثر الميداليَّات،

بحيث تكدّس منها على الأرض قدرٌ وافرٌ، وكان يردّد حانقًا، وهو ما انفكّ يأمل في العثور على فطيرةٍ حقيقيّةٍ:

– أَيضًا؟ أيضًا؟ كيف خطرت لك فكرة هدر هذه العجينة الممتازة، على هذا النحو؟

في غضون ذلك، كان المفتّش يقلب الحقيبة، وبطعنة سكّين، يمزّق قعرها المزدوج. ثمّ قال، بلهجةٍ معسولةٍ، وعيناه تلتمعان كعيني هرٍّ يعبث بفأرةٍ:

– إنّك تنقلين معك كنوزًا! لا بدّ من تنبيشك، أَيّتها المواطنة. وما هذا؟ يبدو وكأنّه قودكا. صحيحٌ أَنّ متع الطعام تتعايش جيّدًا مع الدِّين.

وبزهوّ المنتصر، أَخرج الزجاجة المقشّشة من تحت المقعد، فاعترض پيوتر إيڤا نوڤيتش:

– إِنّها لي.

وحدجه المفتّش مستغربًا، وقال:

– أَلم تقل لي، أَيّها المواطن، أَن ليس لديك ما تصرّح عنه؟

– بالطبع، فما هذا سوى ماء نبعٍ.

– ماء؟

– أَجل، إِنّني أعطش، في أَثناء السفر.

- ولِمَ، إذن، أخفيت الزجاجة؟

- لكي أُحرّر المقعد. وإن كنت غير مصدّقٍ فتفضّل.

وأخذ قدحًا.

- لا حاجة إلى ذلك، أيّها الرفيق. طبعًا نحن نصدّقك. أمّا أنت، أيّتها المواطنة، فهلمّي معي.

ونهضت "أنّا نيكولايفنا"، وسارت سادرةً كإنسانٍ آليٍّ، وبدا شبحها الثقيل غير متوافقٍ ووجهها النحيل. وقبل أن تغادر المقصورة، صوّبت إلى "پيوتر إيفانوفيتش" نظرةً متوسّلةً، كانت نظرة وداعٍ أبديٍّ.

لقد أحدث نبأ اكتشاف الفطائر المحشوّة بالميداليّات صخبًا في كلّ أرجاء القطار، وازدحم الفضوليّون على النوافذ لاستطلاع الأمر. وأخيرًا، بعد أن أصبح "پيوتر إيفانوفيتش" وحيدًا في المقطورة، وفي أعقاب لحظة تودّد، التقط ميداليّةً مرميَّةً على الأرض، وتأمّلها عن كثبٍ... لم تكن قبيحةً تلك المرأة الواقفة، وقد أشرعت يدين تتدفّق منهما أشعّة نورٍ. على وجه الميداليّة الآخر، كان، ثمّة، قلبٌ وصليبٌ، وأحرفٌ لم يفقه معناها. وعلى أيّ حالٍ، بدا له كلّ ذلك صبيانيًّا، وتساءل: "ألم يكن أفضلَ ترك تلك المرأة المسكينة وشأنها، هي وكنوزها السخيفة؟" ثمّ بعد أن تحقّق أنّه في نجوةٍ من الأنظار الفضوليّة، جَمَع، بحركاتٍ سريعةٍ، الميداليّات الملقاة على الأرض، ولفّها بصحيفةٍ عتيقةٍ.

ثمّ عاد أحد الجنود إلى المقطورة وأخبر:

– لقد جرّدوها من ثيابها. أَوَتدرون ما وجدوا بين أدثرتها؟ مئات من الخيوط التي انتظمت فيها حبَّاتٌ مستديرةٌ، تلك التي تدعى مسابح، والتي شبّهها الضابط بطواحين الصلاة عند الصينيّين، وفي طرف كلّ منها صليبٌ. يبدو أنّها كانت تحمل ثلاثة آلافٍ منها. وفي قعر حقيبتها، اكتشفوا أناجيل ومؤلّفاتٍ دينيّةً بالروسيّة. مؤكّدٌ أنّ ذلك سيكلّفها عشر سنوات سجنٍ، أو النفي المؤبّد في سيبيريا.

– إنّني أُشفق عليها، فهي معتوهةٌ، ومن الأوْلى إيداعها مأوًى للمجانين، فالعته ليس ذنبًا ارتكَبَتْه.

وتحرّى الجنديّ الممرّ، حتّى تثبّت من خلوّه، ومدّ يده إلى تحت المقعد حيث كانت لا تزال كومة صغيرة من الإيقونات، ودسّها في جيبه، فيما تَظَاهر "پيوتر إيفانوفيتش" بعدم ملاحظة شيءٍ، ثمّ استأنف الجندي قائلاً:

– إنّ عمّتي "كسينا" هي، أيضًا، مؤمنة، وبوسعي أن أؤكّد لك أنّها ليست حمقاء. صحيحٌ أنّ غاغارين لم يجد، فوق، لا الله، ولا العذراء، ولا الملائكة، ولكنّه لم يبلغ نهاية الكون، وغاية العالم الخارجيّ. ومن يدري؟

واستعاد الركّاب أماكنهم، وانطلق القطار على مهلٍ، وانتاب

"پـــيوتر إيـــقـــانوڤـــيتش" شيءٌ من الأسى لما حلّ بالمرأة العجـــوز، وراوده شعورٌ بالظلم استفزّ من أعماقه ذكرياتٍ لم يكن قد اســـتطاع دفنها إلى الأبد. في الحزب لم يكن أَحدٌ يعلم أَنّه، هو، أيضًا، كان لـــه عمّةٌ راهبةٌ، باسيليّةٌ. وكم قد شاهد المسبحة، بين يديها، في طفولتـــه! ولّما أمر الحكم السوڤـــييتي، عام ١٩٤٥، بإغلاق جميع الأديرة اليونانيّة – الكاثوليكيّة، في مناطق بولونيا الشرقيّة التي ضمّتها روسيّا، اختفـــت "پـــراكسيد" ولم تخلّف أَثرًا. ألم تكن ذكراها هي التي أوحت إليه، قبل قليلٍ، بذلك الشعور المبهم بالشفقة، وهي التي حملته على المخاطرة؟

صباح اليوم التالي، قرع رجلٌ على باب الرقم ٤٣، من شـــارع "موتشانايا" في "لـــڤـــوڤ"، وبعد لحظةٍ خالها دهرًا، فتحت عجـــوزٌ الباب، وسألته بصوتٍ مضطربٍ:

– ماذا تريد؟

– إِنّي أَحمل لكنّ أَمانةً من قِبَل "أَنّا نيكولايـــڤـــنا".

– بحقّ جراح المسيح المقدّسة، هل أَصابها سوءٌ؟

– لقد أوقفها رجال الجمرك، مع كلّ شحنتها.

– يا أمّ الله القدّيسة! اُدخل، أَيّها السيّد، اُدخـــل. لا يحـــسن أَن نتحدّث هكذا، والباب مفتوحٌ.

وأَدخلته غرفةً مكلّسةً، نظيفةً ومجرّدةً، ودعته إلى الجلـــوس علـــى الكرسيّ الوحيد، وسألته بصوتٍ تقطعه العبرات:

- هل هي عهدت إِليك برسالةٍ؟

عندئذٍ وضع "پـــيوتر إيـــڤـــانوڤـــيتش"، أَرضًا، حقيبته اليدويّة، وفتحها، وأَخرج منها زجاجةً مقشّشةً، مخفيّةً في سلّةٍ، وقال:

- هاكها.

وأطلقت العجوز صيحةً منتصرةً:

- لقد ظفرتْ، إِذن: بالماءِ العجائبيّ! لقد جـــاءت بمـــاء لـــورد! بوركت أَيّها المواطن. يا للسعادة، يا للسعادة. لقد كنّا نفتقر تمامًا إلى ذلك الماء، وما تبقّى لدينا منه "معمّد"[1].

ومضت العجوز تجري، وبدا "پـــيوتر إيـــڤـــانوڤـــيتش" محرجًا، مثل ثعلبٍ علق في شركٍ، وانتابه بعض خوفٍ: "لو أَنّهم اكتشفوني...".

وفُتِح الباب بتؤدةٍ، وظهرت امرأةٌ في زيٍّ أَسود، أَثبتـــت عليـــه أَبصارها، وتسمّرت في مكانها، ثمّ صاحت فجأةً، بنبرةٍ حادّةٍ:

- بيتروشكا! بيتروشكا!

- مستحيل! أهذه أَنتِ، عمتي پـــراكسيد، هنا؟!

- لقد عرفتك طفلاً، ولكنّك تشبه أباك، مثلما تشبه قطرة مـــاءٍ أختها. باركك الله. والآن، هاتِ حدّثني.

---

(1) من أَجل الإِفادة، أطولَ وقتٍ ممكنٍ، من ماء "لورد" يضيفون إِليه ماءً عاديًّا، وبذلك "يعمّدونه". تصرّفٌ ساذجٌ ينمّ عن إِيمانٍ نابضٍ بشفاعة العذراء. لدينا ملفٌّ كاملٌ حول الأشفية العجيبة الـــتي تحقّقت هناك بفضل ماء "لورد". أمّا الميداليّات فهي تُعدّ في روسيّا، بمثابة "إيقوناتٍ صغيرةٍ".

كان الليل قد خيّم عندما انسلّ "پيوتر إيڤانوڤيتش" خارجًا من المكان، بعد أن اطمأنّ بحرصٍ إلى خلوّ الشارع من المارّة.

إنّ حادثة "الفطائر" والحقيبة ذات القعر المزدوج قد أوردتها المجلّة السوڤييتيّة "اوجونيوك" في عددها ٤٦، الصادر في شهر تشرين الثاني ١٩٦٣، على الصفحتين ٣٠ و٣١. وللأسف قد تمكّنّا من الإفصاح عن العنوان الكامل للدير الكائن في الرقم ٤٣ من شارع موتشانايا في لڤوف، إذ إنَّ الشرطة السوڤييتيّة قد اكتشفته بفضل رموزٍ انطوت عليها المنشورات المصادرة. ولم يكن لپيوتر إيڤانوڤيتش أَيّ يدٍ في ذلك.

إنّ مقال مجلّة "اوجونيوك" الذي ذُيّل بتوقيع "أَنّا تروپينكوڤا" قد اختُتِم بالأسطر التالية، البعيدة الدلالة: "هذا هو الدين الذي يبتغون تهريبه إلينا، ونشره خلسةً، إنّه ليس أَقلّ خطرًا من تهريب الأفيون، والعملات الأجنبيّة، والأسلحة الناريّة".

١٠

من طرائف "مهمّة إِقرار الأَمن"

من طرائف "مهمّة إِقرار الأَمن"

كان ""نيكيتا"" الجلاّد يلتزم الصمت. بيد أنّ قبضتيه المضمومتين فوق المنضدة، وتلك الومضة المباغتة في عينيه، كانت تنذر بما سيقدم عليه من ابتكارٍ في فنون التعذيب، خلال الاستجواب. وكان مجرّد سماع كلماته الممطوطة، ونبرته المخادعة، التي تميّزها لكنةٌ روسيّةٌ بارزةٌ، يبعث الرعدة في أَوصال المساجين. وكان الناس يتناقلون همسًا مآثر شراسته التي أَودت بحياة مئات المناضلين، من غير أَن تفلح في إِرواء غرائزه الساديّة. فمنذ نهاية الحرب، كان قد انتُدِب إلى منطقة ڤ... في پولونيا، حيث أوكلت إِليه مهمّة إِقرار الأمن. وقد طالما سمع الأب "يان" اسمه، يلفظه، بصوتٍ خافتٍ، من كانوا يظنّون أَنّهم موضع ملاحقته... ومن ذا الذي كان في منجاةٍ منها؟ فقد كان "نيكيتا" الجلاّد يضرب حيثما راق له أَن يضرب، إذ كان قد تلقّن، على أَيدي خبراء متمرّسين، أنّ الإِرهاب المستمرّ هو الوسيلة المثلى لتأمين الاستقرار.

ولبضعة أَيّامٍ خلت، لم يكن ليجول في خَلَــد الأب "يــان" أَنّــه سيتعرَّض لتلك المواجهة، فقد كانت مهامّ كهنوتــه تــستأثر بكــلّ اهتمامه، ويتوهّم، بسذاجةٍ، أَنّ تأكيدات الحزب الحاكم حول احتــرام مشاعر المؤمنين الدينيَّة تضعه في مأمنٍ من ملاحقات رجال الأمن. وها إِنّ كهنوته نفسه، بكلّ ما ينطوي عليه من قداسةٍ، يغدو موضع نقاشٍ. لقد كان عزمه راسخًا وطيدًا... ولكن هل سيقوى جسده المــسكين على تحمّل ما يُسام من عذابٍ، حتّى آخر الشوط؟

- هل فكّرت مليًّا، أَيّها الكاهن؟ لقد قبــضنا عليــك بــالجرم المشهود، ولا ريب أَنّك لم تتوقّع أَن نحاصر الكنيسة. ولقد تثبَّت رجالي من هويّة جميع الذين جاؤوا تحت ستار الظلام، من أَجل مــا تدعونــه الاعتراف الفصحيّ. والآن جاء دورك لكي تعترف، وإلاّ...

كان الأب "يان" يذكر جيّدًا تلك الليلة التي توارى قمرها، والتي كان قد ضَرب فيها للمقاومين موعدًا، بعد أَن كان أحدهم قد وافاه، على درب الغابة، في أَثناء عودته من منح الزاد الأخير لــــقــــالنتي الأصمّ، وقال: "أَبتِ، عمّا قريب يحلّ عيد الفصح، ونحــن حريــصون على أداء واجباتنا الفصحيّة، فنحن مسيحيّون، بحقّ السماء، فتدبّر أمر سماع اعترافاتنا".

كان التردّد قد استحوذ، لحظةً، على الأب "يان" الذي سرعان ما خجل منه، وعزم على اقتحام المخاطرة، ولكن أَيّة مخــاطرةٍ؟ أليــست

المخاطرة جزءًا من "مهنة الكاهن"؟ طبعًا ستظلّ شفتاه محكمتي الإغلاق، ولكن لا بدّ من الحيطة. وهكذا ضرب موعدًا في كنيسة الطائفة، في ساعة متأخّرة من الليل، فكلّ القرية تعرف أنّه كان يسلخ آناء الليل يصلّي إزاء الهيكل، ومن ثمّ فلن يستهجن أحدٌ إذ يرى الكنيسة ما فتئت مضاءةً.

وهذا هو ما يتوجّب عليه، الآن، الإجابة، أو بالأحرى، التستّر عليه. فليس صحيحًا أنّ صبيان "نيكيتا" الجلاّد قد استطاعوا التثبّت من هويّات التائبين، القادمين من بعيد، تحت جنح الليل، فهو، حتّى ذلك الوقت، لم يواجَه بأحدٍ منهم، ولا ريب أنّ شركًا قد نُصب له، وأنّ مصير أولئك الرجال الذين ائتمنوه كان يثوي بين يديه.

كانت عينا "نيكيتا" تومضان، شأن عيني هرٍّ يحاصر فأرًا مذعورًا، وأردف بصوته الممطوط:

– و إلاّ، و إلاّ...

وبكلّ طاقته استنجد الأب "يان": "يا أمّ الله أنقذيني!" ثمّ أجاب:

– تعلم جيّدًا، أيّها الرئيس، أنّني لا أستطيع البوح بسرّ الاعتراف، حتّى ولو كلّفني الصمت حياتي.

– أنت، إذن، متواطئٌ مع رجال المقاومة، وستلقى معاملة المتواطئين.

وضغط "نيكيتا" السفّاح على زرٍّ، وأمر الرجل الذي وقف عند العتبة:

- حمّام غائط... وهو في وقفة التأهّب...

ولم يكن ليخفى على الأب "يان" معنى ذلك العقاب الذي فُرض عليه، والقاضي بغمس السجين، حتّى العنق، في حفرةٍ مليئة بالغائط، بحيث إن هو استمرّ في رفض الاعتراف مات اختناقًا، في غضون أيّامٍ ثلاثة، أو أربعةٍ، على أبعد حدٍّ. كلّ ما كان قد قاساه، حتّى آنذاك، من عذابٍ لم يكن شيئًا بالمقارنة مع هذا العقاب.

وكان السفّاح يضحك، فيسفر عن أنياب كأنياب الكلاب، وأردف بنبرةٍ معسولةٍ:

- إلى اللقاء غدًا. أفد من عطلتك كي توصي العليّ بك!

كان يتعيّن على الأب "يان"، في المقام الأوّل، ألاّ يفقد وعيه، ممّا قد يؤدّي به إلى الغرق في تضاعيف تلك الموادّ اللزجة النتنة؛ ومن ثمّ، فقد كان لايني يتلو، آليًّا، "السلام عليك يا مريم...". ومع ذلك نال منه الغثيان، فتقيّأ، واستولى عليه شعور بالإعياء، فتوسّل العذراء: "يا أمّ الله، سيّدة تشيستوكوفا، إنّي راضٍ بالموت، ولكن ليس داخل هذا المغاط".

وكان الليل قد أخذ يهبط عندما سمع صوتًا يناديه برفقٍ: "أيّها الكاهن، أما زلت حيًّا؟ انتظر أن أسحبك".

وما لبث الأب "يان" أن أحسّ بحبلٍ ينعقد حول عنقه، حتّى كاد يختنق، ثمّ فقد الوعي، وعندما استعاده، وجد نفسه أمام منقذه الـــذي كان يهوي عليه بصفعاتٍ شديدةٍ، ويقول:

- آه! أراك ما زلت حيًّا!

ثمّ خفض صوته. وأضاف:

- إنّنا، رغم كلّ شيءٍ، مسيحيّون، وأنت كاهنٌ. ولا يسوغ لنـــا معاملة الكهنة أسوةً بالآخرين. لذلك، خطر لي أن أنتشلك مـــن هـــذا المستنقع، ليلاً، ثمّ أعيدك إليه، صباحًا، قبل الاستجواب. فالرئيس يقـــدم بسيّارةٍ ينذر دويّها بقدومها، من بعيدٍ. وهكذا سيتسنّى لك أن تغطس من جديدٍ، في الوقت المناسب، لأنّه سيحضر ليتأمّلك، وأنت في حمّامك...

وكان، في الباحة، بركةٌ دُعي الأب "يان" إلى الاغتسال فيها، وما عتّم أن اكتشف أنّ منقذه لم يكن سوى حارس السجن نفسه. ومـــا كان السجن، في الظروف الطبيعيَّة، يحتاج إلى المزيد من العاملين، فقرية ر. لم تكن تضمّ أكثر من ٤٠٠ نفسٍ.

وبعد اغتساله، ارتدى الأب "يان" جلباب السجن، إلاّ أنّ الحارس لاحظ:

- ما زالت تفوح منك رائحةٌ نتنةٌ، أيّها الكاهن، ولكـــن بـــئس الأمر. فزوجتي لا تني تبكّتني بشأنك، مع أنّ لي ضميرًا، أنا أيضًا.

إثر هذه الملاحظة المبهمة، قاد الحارسُ الأب "يان" عبر ممرٍّ، داخل السجن، حتّى الباب المغلّف باللبّاد المفضي إلى منزله. وما كاد الأَب "يان" يدخل، حتّى رأى، في دهشةٍ، الأمّ "آغات" تنهال على قدميه، وتغمر بالقبلات يده النحيلة المعروقة، وهي تتأوّه:

– لم نشهد قطّ مثل ذلك، يا اسم يسوع العذب. أَيمكن أَن يعامَل كاهنٌ على هذا النحو؟ يا للأوغاد، اللصوص، السفّاحين...

وقاطعها زوجها قائلاً:

– عوض ندبك هذا، يا "آغات"، أَليس الأَفضل أَن تقدّمي له ولي، شيئًا من الطعام!

صحيحٌ أَنّه لا يفوح بعبير الورد، والسبب واضحٌ. هيّا استعجلي. ثمّ التفت إلى الكاهن وقال:

– نحن متزوّجان زواجًا صحيحًا، تثبته أَوراقنا. ولكنّنا لا نعلن ذلك، إذ إنّ إخفاءه يضفي علينا، في هذا الجوّ، صورةً أَفضل. عندما باشرت عملي هنا، ظننت أَنّني كنت أَخدم العدالة، ولكن، فيما بعد...

وتوقّف الحارس عن الكلام، إذ كان من عادته أَن يقطع، هكذا، حديثه، وكأنه يعجز عن مواصلة الكلام.

في تلك الأَثناء، كانت الأمّ "آغات" منهمكةً، ولا تني تردّد:

– كُلْ، أَيّها الأب الصغير، كلْ، فلا بدّ أَنّك جائعٌ.

ولم يكن الأب "يان" في حاجةٍ إلى من يحثّه على الطعام، فقد كان الجوع يعضّ أحشاءه، فأقبل على الطعام بنهمٍ. وعقب العشاء، اقتاده الحارس إلى زنزانةٍ لينام، واعدًا بإيقاظه في الوقت المحدّد، لكي يعيده إلى "هناك".

وقدم "نيكيتا" السفّاح، في الغد، ليتفقّد وضع سجينه الزريّ، وكان الكاهن، عملاً بنصيحة الحارس، يتظاهر بمنتهى الانهيار: فسأله السفّاح:

- هل أصبحت الآن مستعدًّا للاعتراف؟

فأومأ الأب "يان" برأسه، بالنفي، وحينئذٍ، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أومضت عينا "نيكيتا" كعيني هرٍّ، وأردف حانقًا:

- إذن، ستمكث حتّى تقرّر الاعتراف، أو تنفق.

لم أعد أذكر، على وجه الدقّة، عدد الأيّام والليالي التي انقضت على هذا المنوال. ولكن كلّ مساءٍ، كان الحارس يستخرج الكاهن، وفي أعقاب مراسم الاغتسال الموجزة، كانت الأمّ "آغات" تبذل أقصى جهدها كي توفّر له الطعام اللائق، رغم الفاقة السائدة في الريف. ثمّ كان يقضي الليل على فراشٍ زريٍّ، ويغطس من جديدٍ في المغاط قبل وصول "نيكيتا" السفّاح الذي كان يصاب بالذهول كلّما وجده لا يزال حيًا.

ومن الغريب أنّ بقاء الكاهن على قيد الحياة كان له، في رجل

الأمن، أَثرٌ مشوبٌ بالتطيّر، و لم يخطر بباله، لحظةً، تواطؤ الحارس، الذي، بالاتفاق مع "زبونه"، كان يوسعه شتمًا وركلاً، في حضور "المعلّم الكبير"، إلى أَن قرّر السفّاح، ذات يومٍ، من غير أَيّ سببٍ واضحٍ... إِطلاق سراح السجين. وكان الأب "يان" واثقًا من أَن محاميًا من فوق كان قد دافع عن قضيّته.

خمسٌ وعشرون سنةً قد تصرّمت، مذ ذاك، ولفّ ستار النسيان أَحداثًا كثيرةً، وعلى أَيّة حالٍ، فالمقامات الرسميَّة تؤثر إِغفال مثل تلك الذكريات.

لقد ظفر "نيكيتا" السفّاح بالوفير من الأوسمة وشهادات التقدير، وما انفكّت السلطات تلجأ إلى خدماته كلّما دعت مصالح الدولة العليا، مثل أحداث آذار ١٩٦٨، عندما تفجّرت ثورة الطلاّب، وفي أَثناء الاضطرابات العمّالية الدامية على الشاطئ البلطيقيّ.

أمّا الأب "يان"، فقد رُقّي إلى رتبة الأسقفيّة.

وما كنت، أَنا، لأُقدم على نشر هذه الحادثة لو لم يكن كلٌّ من الحارس والأمّ "آغات" قد لقي حتفه، وإِلاّ تعرّضا للعقاب الضاري، حتّى بعد انقضاء خمسةٍ وعشرين عامًا.

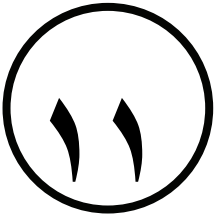

١١

رسالة الميلاد

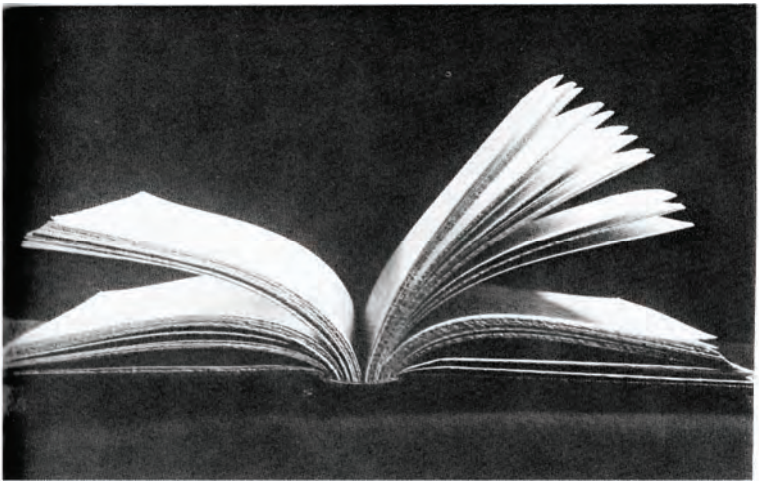

رسالة الميلاد

كنت عائدةً من سفرٍ، وقد استرعى انتباهي، وسط كومة الرسائل الواردة في أثناء غيابي، ظرفٌ كُتبت على حاشيته كلمة "عاجل" فوق خطّين يؤكّدان استعجال المرسل. وبدا لي أنّي كنت أعرف ذلك الخطّ المفكّك، الحازم، الجليّ. و لم يكن الظرف ينطوي إلاّ على بطاقةٍ موجزةٍ. إلاّ أنّني عندما قرأت اسم الموقّع انتفضت، فقد كان واحدًا من زملائي في الجامعة – وَلْنَدْعُه مارك – غابت عنّي أنباؤه منذ عشر سنوات. أمّا النَزر اليسير الذي تنامى إليّ منها، عبر أصدقاء مشتَركين، فكان ينمّ عن مأساةٍ سحيقةٍ.

ففي مطلع عام ١٩٤٤، كانت زوجته "إيزابيل" قد لقيت حتفها، في أعقاب تعذيبٍ ضارٍ، في سجن پاڤياك في ڤرسوڤيا، الذي اكتسب، بمجازره، شهرةً تعيسةً. ومع ذلك لم تُبحْ باسمٍ ولا بعنوانٍ، مع أنّ الجستابو كانوا يعلمون، بفضل اعترافاتٍ انتزعوها من موقوفٍ آخر، أنّها كانت تتبوّأ مركزًا رئيسًا في شبكة ن... وقد اقتلعوا كلّ أظافرها، وغطّوا بالحروق والقروح جسدها المسكين. وقد هوى زوجها إلى وهاد الجنون، بعد أن رأى جثمانها المشوّه.

كان مارك وإيزابيل، في فريقنا الجامعيّ، ينتسبان إلى اتّجاهين متناقضين تمامًا، فهو كان مغاليًا في حدّة إلحاده، فيما هي كانت كاثوليكيَّةً راسخة الإيمان. وقد غدت مناقشاتهما التي لا تنتهي خرافيَّة الصيت. ويوم أَعلنا عن خطوبتهما صرّح مارك جهارًا: "مع ذلك، لن يتخلّى أَحدٌ منّا عن موقفه". كان ذلك في أَيّار ١٩٣٩. وبعد أَربعة أَشهرٍ بدّدتنا الحرب.

وها إنّ رسالته تثبت أَنّه ما زال حيًّا وسليم الفكر. وأَعدت قراءة الأسطر القليلة التي كان خربشها بسرعة وقال فيها: "أَنا في باريس، حيث سأقيم ثمانية أَيّامٍ، مع لجنةٍ فنيّةٍ تمثّل المصنع الذي أعمل فيه (كان مهندسًا). أودّ مقابلتك. اتّصلي بي على رقم الهاتف التالي... ابتداءً من الساعة التاسعة مساءً".

وفي مساء ذلك اليوم عينه هتفت له، وتواعدنا على اللقاء المساءَ التالي، في أَحد مقاهي الحيّ اللاتينيّ.

ارتعشت لمّا رأيته، فقد كان شعره الذي ابيضّ بأكمله يتعارض ومحيّاه الذي ما انفكّ يُعبِّر عن شبابٍّ يانعٍ. لا بل إنَّه بدا لي أوفر شبابًا ممّا كان عليه أَيّام نقاشاتنا الصاخبة. وكنت ما زلت أحتفظ بذكرى ملامحه المتشنّجة، والسيكارة الثاوية أَبدًا في زاوية شفتيه، وقدّمت له سيكارةً فاعتذر:

– لقد أَقلعت عن التدخين.

ولبثنا نراقب أَحدنا الآخر ثمّ قال:

– والآن حدّثيني عمّا صرت عليه بعد كلّ تلك السنين.

كان يبدو بسيطًا، مسترخيًا، وقد نمّ ناظراه عن طمأنينةٍ كبرى. وكان منظره هذا يضاعف حيرتي. ولكنّني لم أَجسر على الاستفسار عن أَحواله، وجال بغتةً في خاطري: "ها قد انقضت عشر سنوات، وهذا وقتٌ طويلٌ. ولا ريب أَنّه قد نسي، وبدأ حياةً جديدةً". وقد أشاعت هذه الخاطرة جوًّا من البرودة في ما بيننا. وفي حين مضيت في سرد مغامراتي في أَثناء الحرب وبعدها، كانت ذكرى "إِيزابيل"، كما عهدتها، تحتلّ مركز تفكيري الباطنيّ.

كم كانت "إِيزابيل" رائعة الجمال! ذات يومٍ، قَدِمتْ متأخّرةً إلى اجتماعٍ كان يعقده فريقنا، فساد بغتةً الصمت والذهول، واستغلقت عليها وحدَها علّة ذهولنا، فسألت ضاحكةً: "ما بكم؟" ولكن لم يجرؤ أَحدٌ منّا على مصارحتها بأنّ ظهورها المباغت، عند فرجة الباب، وقد خلعت عليها قبّعة القشّ التي كانت تحيق بمحيّاها مظهر أَميرةٍ إسبانيّةٍ، قد أَذهلنا. وكنت، من جهتي، أُعجب بكمالها المتقن الذي يميّز المأثرة الفذّة. ومن الغريب أنّ جمالها لم يكن يستفزّ أيّة غيرةٍ، حتّى بين بنات جنسها. فقد أَجمعنا كلّنا على إِحلالها مكانةً مميّزةً، وكأنّها إِحدى ظواهر الطبيعة النادرة، فقد كان جمالها المادّيّ مقترنًا بجمالٍ نفسيٍّ يضفي عليها شفافيّة المرمر، بحيث قال أَحد زملائنا: "من يراها لا

يستطيع إلاّ الاعتراف بوجود النفس". وقد كان جميع الشبّان متـيَّمين بها، حتّى الفتنة، ولكن من غير أَملٍ، فهم كانوا يحبّونها على نحـو مـا يحبّون نجمةً متألّقةً في أَجواز السماء.

هي وحدَها كانت تجهل ما تثيره من هوًى، ولا تغفـل مـدى سلطانها. لقد كانت رسَّامةً مبدعةً، وتعشق فنّها بقدر ما تعشق إيمانهـا المطلق الذي لا يثير لديها أَيّة تساؤلاتٍ. وكان من شـأننا أَن ننحـي بأقسى التجريح على مثل هذا الموقف الساذج لدى أَيّ فردٍ سـواها، ولكنّنا، بإجماعٍ شبه سرّيٍّ، كنّا نُجلّ موقفها. قلّما كانت تـسهم في مناقشاتنا، بيد أنّ آراءها المتّسمة ببساطةٍ مدهشةٍ، كانت تحسم.

"مارك" وحده كان يجرؤ على معارضتها. وكانت، آنذاك، تحدجـه بعينيها الواسعتين الصافيتين، المفعمتين دهشةً، وتقـول لـه: "فـسّر لي فكرتك". وكانت معارضتها خاليةً من كلّ فظاظةٍ، أو عنفٍ، أو رغبةٍ في الإقناع. بل هي كانت، في هدوءٍ، وعلى حدّ ما كان "مارك" يقول، في شيءٍ من الحنق: "تعلن عن إيمانها مثل القدّيسة بلاندين وسط الكواسر".

ومنذ زواجهما لم أرَها. فقد أعقبت قرانهما العطلة الـصيفيّة، ثمّ الحرب. وفي عام ١٩٤٥ أبلغ إليّ رفاق من المقاومة وفاة "إيزابيل".

كان "مارك" يصغي إليّ، ولا يحاول مقاطعتي، وأَنا أستعجل الفراغ من روايتي، إذ إنّ ذكرى زوجته كانت تُظهِر بمظهر التفاهة الأحداث الهزيلة التي كنت أَسردها عن نفسي. لقد تحاشيت عن أيّ تلمـيحٍ إلى

"إيزابيل"، ولكنّها، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، كانت تبدو لي حيّةً حاضرةً... لتفرّقَنا أو لتقرّبَنا.

وعندما أَنهيت حديثي على نحوٍ مباغتٍ، ابتسم "مارك" وقال:

- والآن حان دوري. هل تدرين أَنّني كاثوليكيٌّ؟

- كلاّ، كنت أَجهل ذلك.

وبعد هنيهة صمْتٍ أَردف بصوتٍ خافتٍ رزينٍ:

- إِنّي مدينٌ بذلك إلى "إيزابيل".

وتلاشى ضيقي، في الحال، عندما تبيّن لي أَنّه لم يكن قد نسيها. أَمّا هو فكان يراقبني خلسةً. واستأنف بصوتٍ أَجشّ:

- أَجل إِنّ الأموات يحيون، ولديّ على ذلك الدليل... إِليك الآن قصّةً قد تبدو من ابتداع خيالٍ هائمٍ، ولكنّها حقيقيّةٌ بكلّ حذافيرها.

"لقد باغتتنا الحرب، ونحن في "زاكوبان" (في منطقة التترا)، وهكذا نجونا من القصف الذي تعرّضت له فارسوڤيا عام ١٩٣٩. وبعد انهيار بولونيا، استأنفت عملي في المصنع، فلحسن الطالع لا يقتضي التعامل بالبيتون أَيّ التزامٍ إيديولوجيٍّ. وكان علينا أَن نصمد، ونستمرّ في الحياة.

"وسرعان ما وجدنا أَنفسنا وسط شبكة منشوراتٍ سرّيّةٍ، وغدت دارتنا في "زوليبورز" موئلاً لاجتماعات المقاومة. وقد تجنّد معظم

فريقنا، وبالطبع أَصبحت "إِيزابيل" في قلب الحركة. وكانت هي تلازم البيت، في حين كنت أغشى، أنا، عملي. وكان الجميع يلوذون بها، ولها يبوحون بكلّ ما يثقل صدورهم. وشيئًا فشيئًا، أحاطت علمًا بكلّ نشاط الشبكة. ثمَّ إِنّها، ذات يومٍ، تطوّعت للعمل في مجال النشر، وصارحتني بالأمر، فلم أَجرؤ على منعها، ولكنّني، ليلَ نهار، كنت أرتعد خوفًا عليها. وكانت، أحيانًا، في المساء، تروي لي، ضاحكةً، اشتباكاتها مع الجستابو. فكم قد أُوقفت، في أَثناء تمشيط الشوارع، وحقيبتها مليئة بالمنشورات المحظورة! ولكنّها، بفضل بسمتها التي لا تقاوَم، ودماثة معشرها، كانت تتملّص دائمًا، بحيث ظنّ الرفاق أَنّها من المقدّسات التي لا يمكن مسّها.

"إِلاّ أَنّني في مساء يومٍ من أَيّام كانون الأوّل ١٩٤٣، أَعربت لها عن هواجسي: "ما الذي سيحلّ بي، لو هم قضوا عليك؟" لا ريب أَنّ تلك الخاطرة كانت أَنانيّةً حمقاء، ولكنّني آنذاك، كنت أُحبّها حبًّا أَنانيًّا، وبالأسلوب الوحيد الذي كنت أجيده. غير أَنّ رصانةً مباغتةً استحوذت عليها، وأَجابت، جادّةً:

– إِن هم قتلوني، فسأعود لكي أبلّغ إليك أَنّ هناك آخرةً.

"وهززت كتفيّ تعبيرًا عن عدم اكتراثي بقولها، إذ رغم حضورها المشرق، كان إِلحادي ما انفكّ كاملاً؛ وكان الموت، في نظري، يمثّل نهاية "كلّ شيءٍ".

"بعد ذلك بأيّامٍ قليلةٍ، أُلقي القبض عليها وهي تقلّ حقيبةً مـــلأى بأوراقٍ مشبوهةٍ. وعبثًا حاولتُ التقاءَها في سجن "پـــاڤـــياك" حيث عزلت في زنزانةٍ، وسيمت أَضرى صنوف التنكيل والتعذيب... إنّني، حتّى اليوم، لا أقوى على الكلام في ذلك، ولا سيّمَا بعد أَن شـــاهدت جسدها المتيبّس في حقلٍ كلسيٍّ.

"طالما كنت أَبحث عنها في المقبرة المترامية الأطـــراف المتمثّلـــة في أنقاض قـــارسوڤـــيا المدمّرة، كان الأمل يسندني، ولكنّني عندما ألفيت نفسي إِزاء جثمانها، تراخت، فجأةً، إِرادتي الـــتي كانـــت مـــشدودةً كالقوس. وانتابني ما يشبه دوار الهوّة، وهوى كلّ كياني في خـــواءٍ لا يوصف. أَيُعقل أَن يكون هذا الشيء الذي فقـــد كـــلّ معالمـــه هـــو "إِيزابيل"؟ أنا الذي كان ينكر خلود النفس، رفضت، في تلك اللحظة، رفضًا وحشيًّا، أَن يكون كلّ شيءٍ قد انتهى.

"وفقدت كلّ سيطرةٍ على أَفعالي وارتكاساتي، وتناوشني الأطبّـــاء النفسانيّون، وفي أثناء خضوعي لشتّى ضروب المعالجة، التي لم أكن أعبأ بها، ما فتئت فكرةٌ ثابتةٌ تطاردني: "لقد وعدتني بإِشارة. وإن كانـــت نفسها موجودة حقًّا، فلا بدّ لها أَن تفي بوعدها".

"ولّما غادرت المصحّة، في الخامس عشر من كانون الأوّل ١٩٤٥، دعاني أصدقائي إلى قرية ج... حيث كنّا قد قضينا بضعة أَيّامٍ، في أَثناء شهر عسلنا. كم من الذكريات كانت لاصقةً بجدران البيت العتيق!...

وقد برهن الأصدقاء عن كياسةٍ رائعةٍ، فتركوني مع وحدتي وصـــمتي. فكنت أَسلخ أَيّامًا بأكملها أذرع الحقول المكسوّة بالثلج، تحت سمـــاءٍ واطئةٍ داكنةٍ. وشيئًا فشيئًا، حلّ ألمٌ لاذعٌ محلّ الذهول الذي نجم عـــن الصدمة الأولى، وشرعت أَقنط من العثور على معنى لكلّ تلك المآسي التي تراكمت سحابة سنوات الحرب. ولم تكن حالتي سوى قطـــرةٍ في محيطٍ من الدموع التي لا شيء، ظاهريًّا، كان يبرّرها. وما كدت أطفو من هوّتي حتّى تولاّني الشعور باليأس.

"ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّ ليلي البهيم لم تكن تنيره أَيّة بارقـــة إِيمانٍ، إذ كنت أرى في لا وجود الله واقعًا أكيدًا نهائيًّا. فعـــلامَ، إِذن، كنت أَتخبّط في ذلك الانتظار المستحيل؟ لا ريب أَنّ للقلب أسبابه التي لا يدركها العقل، على حدّ قول پـــاسكال.

"وفي اليوم السابق لعيد الميلاد بارحت المنزل، في حوالي الـــساعة العاشرة صباحًا، على أَن أعود في أعقاب الوليمة التقليديّة التي كانـــت تبدأ، عادةً، لدى ظهور النجمة الأولى. ولم يكن ذلك الاحتفال العائليّ ليتوافق مع وضعي الذهنيّ. سلكتُ درب الغابة التي كانت تسدّ الأفق بخطٍّ أسود، متعمّدًا البطء في السير، هدْرًا للوقت. كنت أَمشي علـــى غير هدًى، وقد استولى عليّ الشعور بأَنّ كلّ شيءٍ قد بلغ نهايته، وأن ليس سوى الموت في غاية الشوط. أَجل، كلّ شيءٍ فيّ كان يستهدف الانتحار، إذ فجأةً لم أعد أَرجو شيئًا.

"وفي تلك اللحظة حدثت المعجزة.

"فقد برز، من بعيدٍ، رجلٌ مقبلٌ صوبي، يشقّ طريقه بعناءٍ، من خلال الثلج الطريّ الحديث الهبوط، محاذيًا أعمدة الهاتف التي كانت تمثّل الصوى الوحيدة وسط البياض اللامتناهي. وما لبثت أن تبيّنت ملامحه الكامدة، وكأنّه كان قد أَبلّ، لتوّه، من مرضٍ عضال. كان يرتدي سترةً مبطّنةً بالفرو، أَجنبيّة المنشأ، ويتوكّأ على عصًا غليظةً معقّدةً. وعندما صار على مسافة بضعة أمتارٍ منّي، سألني:

– هل هذا هو طريق "جوركي"؟

– أَجل، وعند المنعطف ستُطالعك أَسطحتها.

– ربما تعرف "مارك ر"؟

– أَنا هو.

– يا لحسن الطالع! إِنّني أَحمل إِليك رسالةً من زوجتك.

"ولم يلحظ عنف الصدمة التي داهمتني بها كلماته. بل استلّ منديلاً مسح به عينيه اللتين كانتا لا تكفّان ترفّان، وقد قرّحهما البرد. ثمّ تناول من جيبه الداخليّ ظرفًا مدّه لي قائلاً:

– هاكها.

"كان، بلا مراء، خطّ إِيزابيل: "إلى مارك ر... زوجي الحبيب".

"ولم أحاول فتح الرسالة التي أمسكت بها بين أَصابعي المتجمّدة، في حين كانت أحرف العنوان تتراقص أمام عيني، وشرع كلّ شيءٍ يدور

بي. فاستندت إلى عمود هاتفٍ. ولحظ الرجل ذهولي، فابتسم وقال:

– أَجل، إنني أُدرك ما بك. إنّك لم تكن تتوقّع ذلك، إنّها أوكلت إليّ هذه الرسالة، عشيّة إعدامها. فأنا طبيبٌ، وكنت قد استُدعيت إلى جناح النساء. وقد سلّمتني الرسالة، وقالت: "لا بدّ من تسليمها لزوجي. وأنا سأصلّي لكيلا يصيبك مكروه...". وقد وعدتها، مع أنّني شيوعيٌّ. وها أنا ما زلت حيًّا. لقد نفوني إلى ألمانيا، إلى معسكر م. وكنت قد ابتُليت بالتيفوس لدى وصول الحلفاء. وظنّ الجميع أنّني هالكٌ، لا محالة، إلاّ أنّني قد نجوت. وطوال تلك الأيّام المريعة كنت أَحتفظ بهذه الرسالة احتفاظي بتعويذةٍ، متيقّنًا أنّني سأكون في منجاةٍ من كلّ شرٍّ، طالما هي كانت ترافقني... كنت قد حفظتها ببطانة سترتي... ولا عجب في ذلك، فزوجتك – لست أدري كيف أعبّر عن شعوري – زوجتك كانت تشَرّف الجنس البشريّ. ومذ عرفتها، بتّ أوقن أنّ كلّ شيءٍ لن يموت بموتنا.

"وبذلت جهدًا فائقًا كي أَستعيد جأشي. ودعوت "رسولي" إلى منزل أَصدقائي في ج.، ولكنّه اعتذر قائلاً:

– هناك من ينتظرني في "كيلس" حيث تركت درّاجتي، واضطررت إلى قطع المسافة على الأقدام بسبب الثلوج. وإنّه لمن حسن طالعي أنّني التقيتك في منتصف الطريق. لقد كنت حريصًا على إنفاذ هذه الرسالة إليك، في هذا اليوم، فهي هديّة عيد الميلاد لك، من

زوجتك. وداعًا.

ثمّ صافحني، وقفل عائدًا، بخطواتٍ كبيرةٍ، وقد فاتني أَن أسأله اسمه وعنوانه".

ثمَّ التفت إليّ "مارك" وقال:

- تفضّلي واقرئي.

واستلّ من محفظته ظرفًا مدّه لي. فعرفت في الحال يد إِيزابيل. كان قرطاس الرسالة مدعوكًا ملطّخًا بالبُقع. وهاكم نصّ الرسالة التي انحفرت كلّ لفظةٍ منها في ذاكرتي:

« "مارك، غدًا سينتهي كلّ شيءٍ، أو بالحريّ سيبدأ كلّ شيءٍ. اغفر لي، إذ أَهجرك على هذا النحو. إنّني أفكّر بوحدتك الثقيلة الوطء، بعد موتي. ولِكنّني سأصلّي من أَجلك كثيرًا، إلى أَن تدرك، أَخيرًا. فما ندعوه "موتًا"، ليس إلاّ ولادةً جديدةً. سأقيم في حبّ الله، وعلى الحبّ لا يستحيل شيءٌ. بهذا الحبّ أحبّك، لا في هذا العالم وحسب، بل، بمقدارٍ أوفى، في العالم الآخر. ابتداءً من غدٍ، سيكون الحاضر أَبديًّا. وإنّي لَعلى يقينٍ بأنّ الربّ سيستجيب لتضرّعي. إذ إنّه قد وعد! ولا سيّما أنّني، باسمه، سأسأل خلاصك...

"مارك، إنّ ما عجزت عن تحقيقه في هذه الدنيا، سأحقّقه في العالم العلويّ. ومع الله، ستظفر من جديدٍ بالسلام والفرح.

"اغفر لي لأنّني لم أُنجب لك ولدًا. ولكن، في أعقاب الحرب،

سيكون، ثمّة عددٌ غفيرٌ من الأولاد الذين فقدوا الأب والأم...

"أقبّلك بمحبّةٍ جمّةٍ. وإلى اللقاء". »

ورددت له الرسالة، من غير أَن أنبس بلفظةٍ، إذ كانت العبرات تخنقني. ورنا إليّ "مارك" مبتسمًا، وقال:

– هذه الرسالة جعلت منّي إنسانًا جديدًا. وتلك المسيرة عبر الثلج، عشيّة عيد الميلاد، كانت لي بمثابة درب دمشق. لقد استحوذ عليّ شعورٌ مادّيٌّ بأنّ قشورًا كانت تتساقط من عينيّ... والآن، بانتظار اللقاء الكبير، أحاول أَن أكون أكثر جدارةً بتلك التي هي إلى الأَبد زوجتي... أَجل، قد نفّذْتُ ما طالبتني به، برسالتها. فقد تبنّيت طفلَيْن يتَّمتهما الحرب، وتساعدني في تربيتهما أختي التي فقدت زوجها في ساحة الوغى، سنة ١٩٤٤.

هل تدركين، الآن، سبب حرصي على لقائك؟ لقد كنتِ لها صديقةً، وبالتالي فلك حقٌّ في رسالتها، رسالة الميلاد.

١٢

إيقونة "روبليف"

إيقونة "روبليف"

عقد فريقُنا لقاءً حول منضدةٍ مستديرةٍ، احتفاءً بعودة "جان كلود" من موسكو، حيث قضى فترةً قصيرةً، في نطاق المبادلات الثقافيّة. في مثل تلك اللقاءات كنّا نتناقش ونتمادى في النقاش. ومن أَجل ضبط أقوالنا، كنّا نلجأ إلى آلة تسجيلٍ تثبت كلّ ما نتفوّه به. وفي نهاية السهرة، عند إجمال النقاش، كان بوسع كلٍّ منّا الاستشهاد بالتسجيل لتأكيد أقواله وأَقوال الآخرين، ممّا ينفي كلّ محاولة تكذيبٍ أو تملّصٍ. ومن ثمّ، كان شعار فريقنا يوجز في كلمتين: "قول الحقيقة". كان فيما بيننا مؤمنون وملحدون، بيد أَنّ استقامة البحث، واحترام "الآخر" كانا يجمعاننا.

وكان "جان كلود" هو أكثر أَفراد فريقنا إِثارةً للجدل. كان حادّ الذهن، جنوحًا إلى المعارضة، يلمح أيّ شططٍ في الاستنتاج، وأَدنى تعميمٍ خاطئٍ، ويعيد "الرعيّة" إلى سراط المنطق القويم. كان نقده، دائمًا، صائبًا، إلاّ أنّه لم يكن بنّاءً. فبعد تدميره لخصمه، لم يكن قادرًا على إِبراز

مجموعة آراءٍ متكاملةٍ تبرّر هجومه، بل كان نقاشه يفضي، أبدًا، إلى العدميّة، ومعتقداته المبهمة كانت عاجزةً عن الحلول محلّ الإيمان.

ومنذ عودته، استولى على جميعنا شعورٌ بأنّ تحوّلاً قد ألمّ به. ومع أنّ اللقاء كان قد عُقد احتفاءً به، ومع أنّه لم يكن، يومًا، بحاجةٍ إلى تحريضٍ كي يتولّى مبادرة النقاش ويهيمن عليه، إذ كان أبدًا يخالف تحبيذه للحوار، ويستأثر وحده بالكلام، فقد كان صمته وتردّده، في تلك المناسبة، مثار فضولنا. وكانت آلة التسجيل تدور.

وأخيرًا، بعد أن أثبت على المنضدة مرفقيه، ودسّ، في شعره المشعّث، أصابعه العشر، وهام في البعيد نظره، أخذ يتكلّم، وطوال حديثه، لم يجسر أحدٌ منّا على مقاطعته. كان حديثه مونولوجًا طويلاً، ومن الكثافة بحيث إنّ أيّة محاولةٍ لإيجازه ستؤدّي إلى تشويهه. وبالتالي سنعمد إلى نقله بحرفيّته، مقتصرين على استبعاد بعض العبارات المكرّرة، فحسب:

"لقد واجهت في موسكو حادثةً غريبةً، وإنّي لأتساءل هل عليّ أن أُحدّثكم عنها، إذ ربّما يتعيّن التريّث، ردَحًا، حتّى يستقرّ ما في نفسي، وأُدرك كنه ما حدث. فثمّة أُمورٌ لم تتبلور بعد في ذهني، بل هي تتداخل، شيئًا فشيئًا، مثل عناصر لعبةٍ معقّدةٍ. ومع ذلك، فسأحدّثكم".

وإثر هنيهة صمتٍ، واصل حديثه، وهو شارد النظر:

"أجل، إنّه لحادثٌ غريبٌ، وقد بدأ أتفه بدايةٍ. كنت خارجًا من فندق س... حيث كنت قد توقّفت، مزجّيًا الوقت في أرجاء الساحة

الحمراء، ريثما يحين موعد العمل الذي كنت مرتبطًا بـــه، في الـــساعة الحادية عشرة، فلحظت، في زاوية شارعٍ جانبيٍّ، رجلاً زريّ الهنـــدام، واقفًا يراقبني. ومررت به، واجتزت، ثمّ مررت من جديـــدٍ، وهـــو في مكانه لا يريم عنه؛ وبغتةً، قال لي بسرعةٍ، وبالروسيّة: "لديَّ إيقونةٌ أودّ بيعها. هل تريدها؟، فارتعشت، إذ قد طالما بحثت عن إيقونةٍ حقيقيّـــةٍ! فلدى بائعي الأثريّات، لا يوجد الآن سوى نسخٍ تفتقـــر إلى الأَصـــالة والعمق. وفي غضون ذلك، مرّ بنا رجلٌ، فتظاهر محدّثي بأنّه لم يَـــرَني، وانطلق يحثّ الخطى، واقتفيت أثره، وكأنّني أطارده، ولكـــنّني كنـــت أحتفظ بمسافةٍ بيني وبينه، وأراقب المارّة بحيطة. فمن المعروف أنّ بيـــع الإيقونات للأجانب بات محظورًا في روسيّا، وأعني الإيقونات الأصيلة، لا تلك المقلّدة التي تُنتج بالجملة، لكي توفّر لصناديق الدولـــة قطعًـــا أجنبيًّا! ومن ثمّ، فقد أدركت سرّ سلوك عميلي المجهـــول، ورحـــت أتعقّب خطواته المتعرّجة البهلوانيّة. وأخيرًا رأيته يتوارى تحت بوّابة بناءٍ ضخمٍ بشعٍ. وخيّل إليّ أنّني فقدت آثاره، إلاّ أنني ما لبثت أن لمحته من خلال منور الدرج، وهو يشعل سيكارةً، عند فسحة الطابق الثالـــث. وصعدت فحثّ الخطى، وبدا البناء مقفرًا. وعندما صرنا إلى الطـــابق الأخير، سلك ممرًّا ضيّقًا مظلمًا، انتظمتْ على جانبَيْه غرفٌ منحنيـــة الأسقف ثمّ توقّف فجأةً، واستلّ من جيبه مفتاحًا فتح به بابًا، وتنحّـــى بأدبٍ كي يفسح لي ممرًّا. وأخذت أُطبق عينيّ وأفتحهما كي آلف عتمة

الغرفة التي أَدخلني إِليها، وحيث كانت تستلقي امرأة على فراشٍ زريٍّ، في الزاوية اليسرى. وقال الرجل:

- إِنّها أمّي.

"ثمّ سحب ستائر النافذة الوحيدة، وحدجني في حذرٍ، وسأل:

- أَلن تبوح بأنّك جئت إلى هنا؟

"فابتسمت وأَجبت:

- وكيف لي أَن أَبوح، وأَنا أَجهل حتّى اسم الشارع؟

"فقال برفقٍ:

- لا بأس. إنّ العيون مبثوثةٌ في كلّ مكانٍ، والأَجانب لا يدركون، وغالبًا ما يثرثرون، ويُلحقون بالناس أَضرارًا جسيمةً.

"لم تكن لكنته تدلّ على أَنّه من مواليد موسكو، وقد نمّت تعابيره على أَنّه على شيءٍ من الثقافة. وقد أَبرز ضوء النافذة هزاله وشحوبه البالغين، فيما كان بصره الحاسر يتفحَّصني باهتمامٍ. وتصاعد من المرأة العليلة تنهُّدٌ ارتعشت له. ولكنّه قال:

- إِنّه صديقٌ، يا أمّاه، لا تخافي.

"ثمّ التفت نحوي وأَضاف:

- هي خائفةٌ، لأنّها لا تمتلك جواز سفرٍ.

"إِنّني ملمٌّ بروسيّا إِلمامًا كافيًا، كي أدرك معنى ذلك. فلا أَحد

يستطيع التنقّل من غير جواز سفرٍ، ولا أَحد يستطيع تغيير مكان إِقامته من غير إِذنٍ مسبّقٍ، وكلّ مخالفةٍ لهذه القوانين تعرّض للغرامة أو للسجن. وقد استغربت من مضيفي ذلك الاعتراف الذي لم يكن ثمّة ما يبرّره.

"وحينئذٍ أَخذ عميلي يرنو إِليّ، وقد افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ عريضةٍ، وقال:

– مخايلك توحي بالثقة. لن تشي بي!

"وقلت في نفسي: هكذا هم الروس. يقفزون، بغتةً، من موقفٍ قصيٍّ إلى أَقصى نقيضه. ثمّ أَجبته:

– بالطبع لن أَشي بك! وماذا عن الإِيقونة، أَيّها الرفيق؟

– اسمي "أندري الكسندروڤيتش". أبي كان يدعى "ألكسندر". وقد قتلوه. لا بأس، سآتيك بالإِيقونة.

"وتوارى في ما يحاكي مستودعًا ضيّقًا، خاليًا من النور، وقد ترك بابه مفتوحًا كي ينفذ إِليه بعض الضوء.

"وأسرّت لي المرأة، طريحة الفراش:

– إِنّها إِيقونة أسرتنا. منذ أَربعة قرونٍ نحن نحفظها، وهي تحفظنا.

"ثمّ صمتت فجأةً، وكأنّها قد تمادت في الحديث. وطفا "أَندري الكسندروڤيتش" من الظلمة، وحدجنا بنظرةٍ متفحّصةٍ. هل هو سمع كلمات المرأة المريضة؟ على أَيّ حالٍ، لم يظهر ما يدلّ على ذلك. وفي

يدَيْه، الممدودتين كان يحمل لوحةً محاطةً بإطـــارٍ: الإيقونـــة. وأخـــذ كرسيًّا، وأداره نحو النافذة، وألقى على مسنده الإيقونة، وتراجع قليلاً، ثمّ تنحّى عن مكانه، وقال في خشوعٍ:

- إنّها بريشة "روبليـــف".

"وانتفضتُ. فذلك القول كان يبدو لي متعذّر التصديق، إذ كيف يعقل أن يمتلك فردٌ إيقونةً بريشة "روبليـــف"، وقد مضى خمسون سنةً على ثورة أكتوبر، وبات في حكم المؤكّد أنّ جميع الذين كانوا يمتلكون مثل تلك الكنوز قد تواروا منذ زمنٍ بعيدٍ؟ وهل يعقل أن توجد إيقونةٌ "لروبليـــف" في تلك الغرفة الزريّة، القائمة على سطح البناء، والـــتي يفوح كلّ ما فيها برائحة البؤس؟

"ولا ريب أنّ الرجل قد لحظ تعابير وجهي، إذ تخـــضّب جبينـــه باحمرارٍ مفاجئٍ، وقال بصوتٍ خافتٍ:

- مع ذلك، قلت لك الحقّ. ولا يخفى عليك أنّـــه يـــشقّ علينـــا التخلّي عنها، ولكنّنا مجبرون؛ فخيرٌ لنا أن نبيعها من أن تُنتَـــزَع منّـــا انتزاعًا.

"كان صوته قد استعاد نبرته القاسية. ولكنّه صمت فجأةً. أمّا أنـــا فما كنت أعير قوله أيّ انتباهٍ، وقد استغرقت، مأخوذًا، في تأمّل الإيقونة. أجل، كنت أتأمّلها، مع أنّني قد زرت، أكثـــر مـــن مـــرّةٍ، متحـــف

"تريتياكوف". ومؤخّرًا، في باريس، قد شاهدت ثلاث مرّاتٍ فيلم "ناركوفسكي"، ولم أكن، في المرَّة الثالثة، أبتغي سوى تأمّل "إيقونة الثالوث" بريشة "روبليف"، تلك النافذة المشرعة على عالمٍ نتظاهر بتجاهله، مع أنّه أكثر وجودًا منّا، نحن أنفسنا، عالمٍ هو وجه العالم الحقّ.

وتوقّف "جان كلود" هنيهةً، وأشعل سيكارةً، ثمّ تابع بصوتٍ أجشّ:

"لقد كانت، فعلاً، إيقونةً للمخلّص، بريشة "روبليف"، أو، على الأقلّ، من إنتاج مدرسته. ربّما أسهم مظهر البيت الزريّ في إبراز مأثرةٍ خالدةٍ، على نحو ما يُبرز الضدّ ضدّه، مأثرةٍ لم أكن لأتوقّع وجودها ثمَّةَ، فلم أستطع الإمساك عن التعبير عن إعجابي الصارخ. وفي تلك الأثناء، كان "أندري الكسندروفيتش" ما انفكّ واقفًا خلفي، على بعد خطواتٍ منّي، معتصمًا بالصمت؛ وكنت أسمع أمّه تنتحب انتحابًا رفيقًا. كان كلّ ذلك بمثابة خلفيّة الحلم الذي كنت أعيشه، مأخوذًا في تأمّل ذلك الوجه الذي أضاءته عينان فائقتا الاتّساع، شديدتا الحيويّة، اشتبكتا بناظريّ، وراحتا تسبران أغوار كياني، في وضوح رؤيةٍ لا ترحم، ولا تداري.

"كم استغرق ذلك؟ لست أدري، إذ كنت قد طفرت خارج إطار الزمن. لا تسخروا منّي، ولا تعدّوني حالمًا خياليًّا، إن أنا اعترفت لكم بأنّ حوارًا صامتًا قد انعقد بيني وبين الإيقونة التي شعرت فجأةً أنّني

على استعدادٍ لبذل أيّ شيءٍ، ولو نصف عمري، للظفر بها.

"وكانت المرأة العجوز لا تنفكّ تبكي. وتولاّني بعض الخجل من صمتي وشرودي، فالتفتّ إلى "أندريه ألكسندروڤيتش" وطرحت عليه السؤال التقليديّ الذي كان يلهب شفتيَّ:

- كم تطلب ثمنًا لها؟

"ولم يجب في الحال، بل كان يتطلّع إلى أمّه، في توقّعٍ وتوسّلٍ، وكانت، هي، ما فتئت تبكي في صمتٍ، وقد ضمَّت يديها فوق غطاء فراشها الرماديّ. وأخيرًا، بدا وكأنّه قد أخذ بزمام شجاعته، وقال:

- المهمّ هو أن تشعر بإيقونتنا أنّها سعيدةٌ لديك!

"وحدّقت فيه مذهولاً، متسائلاً هل أُصيب بمسّ جنونٍ. وبدا وكأنّه لا يراني. كانت شفتاه تتحرّكان برفقٍ، وكلّ جسمه يرتعد، في هندامه الرثّ. وأدارت العجوز نحوي عينيها الغارقتين بالدموع، وقالت بنبرةٍ متوسّلةٍ:

- يا سيّد، لا تلم ابني. فليتك تعرف ما تمثّل له هذه الإيقونة التي أنقذت حياته!

"وارتعش الشابّ، وهتف: "أمّاه!". ولمحت الاحمرار الخاطف الذي خضّب، هنيهةً، وجهه الشاحب، ثمّ أردف:

- أمّاه! هذه أسرار الأسرة.

فردّت، بصوتٍ جليٍّ:

- لا تخف، يا أندروشا، إنّه صديقٌ.

"وكان اضطرابي لا يني يتضاعف، والكلام يخونني، وبات كلّ همّي أَن أَفرغ سريعًا من إبرام الصفقة، والمضيّ بالإيقونة التي كنت، آنذاك، أرغب فيها، كما لم أرغب، يومًا، في شيءٍ، حتّى النساء.

"ومع ذلك، ومع ما تعهدون فيّ من جرأةٍ، لم أَجسر على استعجال الأمر، فقد كان وضع أولئك القوم المساكين الطيّبين يحزّ في نفسي، وآثرت التذرُّع بالصبر حتّى النهاية، ولا سيّمَا أَنّ العجلة ليست من صفات الروس. واستأذنت بالجلوس، فابتعد كي يفسح لي إلى الكرسيّ ممرًّا. وجلست إزاء الإيقونة التي لم أكن أستطيع إزاحة عينيّ عنها، واستحوذ عليّ قلقٌ مبهمٌ، وخشيت ألاّ تفضي إلى نهايةٍ سعيدةٍ تلك الصفقة التي كانت، مع ذلك، تبدو وكأنّها قد تمّت. وبغتةً راودني هذا السؤال الغريب: "هل تكون الإيقونة سعيدةً عندي؟!" وكان الربّ يتفرّس فيّ بنظرةٍ تجمع العذوبة إلى الرهبة، فأشحت ببصري.

"وفي غضون ذلك، كان يتواصل بين الأمّ وابنها حوارٌ لا يوصف، فهي كانت ترنو إليه بنظرةٍ متوسّلةٍ، وهو كان يبدو فريسة قوًى مبهمةٍ تمزّقه تمزّقًا باديًا للعيان، إذ كان انقباضٌ وجيعٌ يقلّص محيّاه، فيما تشنّجت يداه الملقيتان على مسند كرسيٍّ. وقالت العجوز:

– يا أَندروشا، لكي تكون الإِيقونة سعيدةً عنده، ينبغي أَن نسرد له روايتها، وعلى أَيّ حالٍ، فالأمر لا يخصّنا وحدنا.

"كان شعوري بالبعد عن أَجواء مضيفيّ يتعاظم شيئًا فشيئًا. ولكن، في الآن عينه، شرعت أَلِجُ أَجواءً أعرفها أو أَتعرّفها من جديدٍ. وبدوت كمن يرى في الحلم أحداثًا أليفةً. وعزمت على ألاّ أقاوم التيّار.

"ولست أَدري هل كان وهمًا ما بدا لي آنذاك أَم حقيقةً، فقد اتّضح لي أَنّ استسلامي الباطن قد حطّم سدًّا كان يحول دون لقائي ومضيفي. وفجأةً، أَشرق محيَّا أندروشا المُضنى، وقال لأمّه:

– أشاطرك الرأي، يا أمّاه، ولكن كيف السبيل إلى إِفهامه؟

"فأشارت المرأة إلى الإِيقونة، وردَّت في مهابةٍ:

– الربّ هو الذي سيتولّى إِفهامه.

"وقد بتّ، آنذاك، مسترخيًا تمامًا، غير مستعجلٍ، مشدود الانتباه، على غير فضولٍ، وعيناي في عيني الإِيقونة. كنت مستسلمًا، ولكنّ استسلامي كان خاليًا من السلبيّة؛ وبالإِجمال، كنت أَشعر أَنّني أقيم في بُعدٍ آخر، وكأَنّني قد مُتّ، وصرت أُبصر، أَخيرًا، لا ظهر الأمور، بل وجهها.

"ومضى أَندروشا يتكلّم بجرْسٍ موسيقيٍّ (وقد علمت، فيما بعد، أَنّه من لينغراد) وهو يروز كلّ لفظةٍ من ألفاظه، ويقطع حديثه بفترات صمتٍ. وكانت أمُّه مضمومة اليدين، شاخصة النظر إِليه؛ وقال

الشابّ: "واحدٌ من أَعمام أعمامي كان راهبًا يعمل مع "روبليـــق"؛ كان رسّام إيقوناتٍ، غير أَنّه كان يفتقر إلى العبقريّة؛ وكانت عائلتنـــا، الشديدة التفرّع قبل ثورة أكتوبر، تحتفظ بالعديد من أعماله. وكـــان "روبليـــق" يؤثره بحبٍّ جمٍّ بسبب شفافيّته، إذ لا شيء فيه كان قاتمًا كتيمًا. هذا، على الأقلّ، ما كان، في أسرتنا، يتناقله الأبناء عن الآباء. وكان عمّنا الراهب ذاك يدعى "سيرج". وذات يومٍ، أَخطأ في مـــزج الألوان، فغضب "روبليـــق" وبالتالي، لم يستطع مواصلة العمل، إذ إنّ رسم الإِيقونة يتطلّب نفسًا صافيةً ملساء. ثمّ إنّ "روبليـــق" جثا أمام العمّ "سيرج" وقال له: "اغفر لي، يا أَخي، فطالما أَنت لم تغفر لي مـــن أعماق قلبك، لن أمسك بالفرشاة من جديدٍ".

"وانفجر "سيرج" بالبكاء، وجثا بدوره، وتعانق الرجلان، واستعاد "روبليـــق" فرشاته، ورسم، آنذاك، هذه اللوحـــة الماثلـــة أمامـــك، وأَهداها إلى العمّ "سيرج"، تكفيرًا وتعويضًا. وما لبث أَن احتلّ التتـــر الدير، واضطرّ العمّ "سيرج" إلى الفرار، مصطحبًا لوحته اصطحابه لكنزٍ ثمينٍ. وقد هام طويلاً قبل أَن يبلغ البيت الريفيّ حيث كان يقيم أخوه، وما هي إِلاّ أسابيع قليلةٌ حتّى لقي وجه ربّه، من مغبّة الإِعياء، ولكنّه، قبل وفاته، قال لأخيه: "أَترك لك إيقونةً، احفظها تحفظك، ولكـــن لا تنسَ أَن تستأذن بذلك الأب الأرشمندريت، فأنا بصفتي راهبًا لـــست أملك شيئًا، ولا أســـتطيع أَن أهـــب شـــيئًا". وفي أعقـــاب عـــودة

الأرشمندريت إلى الدير المدمّر، أذِن لنا بالاحتفاظ بالإيقونة، التي بقيت، مذ ذاك، في أسرتنا.

"وتوقّف "أندري ألكسندروڤـيتش" هنيهةً، وكأنّه يلقى مـشقّةً في مواصلة الحديث، وقال بصوتٍ مخنوق:

– هل يتعيّن عليّ حقًّا أن أبوح بكلّ شيءٍ"؟

– أجل، يا أندروشا، في سبيل مجد الله، أجابته المـرأة منتحبـةً، ويداها ما انفكّتا مضمومتين. ثمّ التفتت إليّ وقالت:

– لا تغضب، يا سيّد، ولكن، في أيّامنا لا يحسن بالمرء أن يـتكلّم عن المعجزات، وإلاّ عدّوه مجنونًا وأودعوه مصحّة أمراضٍ عقليّةٍ.

"وتابع أندريه حديثه، وقد علقت أبصاره بالإيقونة:

"أجيالٌ عديدةٌ متعاقبةٌ عاشت تحت أنظار الإيقونة. وكـانوا، في الأسرة، يقولون إنّ من لم يكن نقيّ الضمير لا يجرؤ على الـدنوّ مـن "الزاوية الجميلة"[1]. وإبّان حرب ١٩١٤، كان المنزل يضمّ ثلاثة أبناءٍ ذهبوا جميعهم إلى ساحة الوغى، ولكنّ واحدًا منهم فقط عاد، وقد عاد مشوّهًا، وهو في العشرين من العمر، وكان قـد تطـوّع في الـسابعة عشرة. ذاك كان أبي. رجع، وقد انقلب انقلابًا جذريًّا، إذ فقد كـلّ إيمانٍ. وتنكّر لكلّ شريعةٍ، رجع بساقٍ من خشبٍ، ومبادئ ثوريّةٍ، وأبى المكوث في البيت، فمات أبوه أسًى.

---

[1] كلّ بيتٍ روسيٍّ كان يكرّس زاويةً لإيقونة الأسرة، مضاءة ليلَ نهار بالشموع أو بالسُرُج.

"أَصبحت الثورة دينه، والإنسانيَّة إلهه. استقرّ في موسكو، وتوقّل في سلَّم الحزب، وعندما أَمسى مدير ناحيةٍ، أعلن على المؤمنين حربًا ضاريةً بلا هوادةٍ. يقول الذين عرفوه إنّه كان يمقت الله، ويحمّله تبعة كلّ ما يغشى المسكونة من كوارث. كان يطارد بحنقه الكهنة والرهبان، ويودي بهم إلى الموت، مُتَخيِّلاً أَنّ الفردوس سيعمّ الأرض، بعد أن يتمّ القضاء على كلّ دينٍ. وكان ينظم أَناشيد إلحاديّةً، يهاجم بها الله والدين، وينشرها في مجلّةٍ حزبيّةٍ.

"وفي إِثر وفاة جدّي، نهب اللصوص منزل أُسرتنا ودمّروه.

"وكانت السنون تمضي، وأبي لا يزال أَعزب؛ وكان يبرّر ذلك بقوله لستُ في حاجةٍ إلى امرأةٍ، فقد تزوّجت الثورة. إلاّ أَنَّه التقى، ذات يومٍ، فتاة أَصبحت أمّي. جمعهما حبٌّ صاعقٌ، وتزوّجا في الحال، زواجًا مدنيًّا، بالطبع. وسرعان ما حبلت أمّي. حينئذٍ تذكّر أَبي بيت أُسرتنا المهجور، والذي لم يصادر، إذ إنّ والدي كان يتمتّع بامتيازات أَعضاء الحزب.

"وفي يوم صيفٍ اغتنم فرصة العطلة، فاستقلّ وأمّي قطارًا، وراح يتفقّد البيت، فوجده متداعيًا، في حالةٍ تبعث على الرثاء. في الحديقة المحيقة به لم يكن سوى الأشواك، وقد ماتت الأَشجار المثمرة، وامّحت معالم الطريق. غير أَنّ الجدران المتينة كانت ما برحت صامدةً، والسقف نفسه لم يتصدّع، ففي الأيّام الخوالي كانوا يتقنون البناء. وشمّر والدي

عن ساعديه، وأكبّ على ترميم المنزل، علّه يعيده صالحًا للسكن، ولو إلى حدٍّ. لم يكن قد وطئه منذ عام ١٩١٨، وفي تلك الأثناء كان جدّي قد لقي فيه حتفه، ودفن في مقبرة القرية، ولكنّ والدي لم يعبأ بالبحث عن لحده.

"كان البيت خاويًا: لا أَثاث فيه، ولا عِدَد منزليةً؛ والإِيقونة أَيضًا كانت قد اختفت، ولكنّها كانت آخر ما يمكن أَن يخطر لوالدي ببالٍ، بل، ربّما، لم يكن يذكرها إِطلاقًا. ففي حداثته، كان يختلف إلى المدرسة الثانويّة في موسكو، ومنها، مباشرةً، انطلق إلى جبهة القتال. وهكذا عكف والداي على خلق "عشّ العشّاق". وبعد أَن حرّرا الغرف السفلى من التراب والحصى، فغدت مؤهّلةً للسكن، جاءا فاحتلاّ، ذات يومٍ، إحداها، تلك التي كانت تدعى "غرفة الموقد".

"ومنذ الليلة الأولى، أَيقظت أمّي، وكانت حبلى بي، والدي المستغرق في نومٍ عميقٍ، وقالت: انظر، ما هذا؟

"فقد كانت قد تجلّت، في الزاوية اليُمنى، بقعةُ نورٍ مربّعةٌ، وعلى حدّ ما قالت أمّي فيما بعد، كانت تلك البقعة المضيئة تحاكي نافذةً على مستوى الحضيض.

"وقلق أبي فنهض وجسّ الجدار، وخيّل إِليه، للوهلة الأولى، أَنّ الجدار لم يكلّس تكليسًا جيّدًا، في ذلك المكان، وأَنّه كان، هناك، ثقبٌ

ما. غير أنّ تلك الليلة كانت دامسة الظلام. لا قَمَر ينيرها، فضلاً عن أنّ سلامة الجدار وصفاقته قد أثبتتا أنّ النور لم يكن متسرّبًا من الخارج، بل نابعًا من داخل الجدار. إلاّ أنّ والدي كان منهكًا، فعاد إلى النوم، وقال لزوجته: سنرى الأمر غدًا.

"وفي ضوء النهار، اختفت بقعة النور، بحيث ظنّ والدي أنّ الأمر لم يتعدَّ كونه حلمًا. بيد أنّ الظاهرة تجلّت من جديدٍ، في الليلة التالية. وفي تلك النوبة، عمد، هو، إلى إيقاظ زوجته، وقد حدّثنا، فيما بعد، بأنّ تلك القضيّة قد جعلت النوم يجفوه. وقد تخيّل، لحظةً، أنّ بقعة النور كانت انعكاس مرآةٍ، ولكن لم يكن البيت يحتوي أيّة مرآةٍ، فجُنّ جنونه، ونهض ووضع أمام مربّع النور لوحًا خشبيًّا، ولكنّ الضوء تسرّب من خلال ذلك اللوح... وفي آخر المطاف، غطّى رأسه بلحاف، لكي لا يرى شيئًا. ولكن، في تلك الليلة، جفا النوم عيني أمّي.

"لم أعد أذكر كم ليلةٍ متعاقبةٍ تكرّر ذلك الحدث. وكان أبي يقول: "ذلك مستحيلٌ! ولا بدّ أن يكون هناك تفسيرٌ علميٌّ... "، إلاّ أنّه كان يتردّد في إفشاء الأمر، خشية أن يصبح أُضحوكة الرفاق.

"وغدا والداي يتظاهران بالنوم، ويظلاّن مؤرّقين، إلى أن حزم أبي، ذات ليلةٍ، أمرَه، وقال: "بئس الجبس! سأنقره وأرى ما يختبئ وراءه، فتناول فأسًا ومطرقةً وأخذ ينقب. وسرعان ما تبيّن له وجود فراغٍ داخل الجدار، وتوارت شظايا الجدار المتهدّم في أعماق ثقبٍ، فعمد إلى

تحرير الهوّة، حيث مدّ يده، وما لبث أن صاح: "إنّه مخبأٌ! ها إنّي ألمس صندوقًا خشبيًّا مستقيمًا".

"كان تأثره من العنف بحيث سحب ذراعه، وجلس هنيهةً على عقبيه. وطفقت أمّي تصفّق فرحًا، وقالت:

– لا ريب أَنّ أَباك قد أخفى، قبل موته، كنزًا. هيّا أَسرع، فالفضول يكاد يقضي عليّ.

– إن كان كنزًا فهو ليس ملكنا، بل ملك الشعب. سأستدعي مفوّض الشرطة.

"غير أَنّ أمّي ضمّت يديها متوسّلةً:

– يا إليوشا، دعنا نرى ذلك أوّلاً، نحن الاثنان. ثمّ، ما عساك تقول للمفوّض عن مربّع النور الذي رأيناه، هذه الليلة؟ أليس هذا النور هو الذي استثار انتباهك. لا ريب أَنّهم سيهزؤون بك.

"وأَصابت تلك الحجّة هدفها. وعمد والدي إلى توسيع الثقب، وانغمس فيه حتّى خصره، وسحب منه صندوقًا مسطّحًا، من خشب متعفّنٍ نخرٍ، يتساقط هباءً. وقد بلي، أَيضًا، الحبل المحيق به، ومن ثمّ فهو لم يلقَ مشقّةً في نزع الغطاء، وفي الصندوق المفتوح، كانت تثوي الإِيقونة.

"ولم يستطع والدي حبس صيحة دهشةٍ، وأَخفى عينيه براحة يده، وتراجع خطواتٍ إلى الوراء، وهو يقول:

– إِنه يحدّق فيّ! إِنه يحدّق فيّ!

"ولم يكن لأمّي عهدٌ بالإِيقونة. وقد تنازعها، إذ ذاك، على حدّ ما اعترفت به، هي نفسها، في ما بعد، شعوران: دهشةُ الإِعجاب بالإِيقونة وخيبة الأمل، إذ هي كانت تتوقّع العثور على كنزٍ.

"وقد بلغت دهشتها ذروتها، عندما رأت أَبي يركع على ركبتيه، محدثًا ضجّةً حادّةً، وعيناه شاخصتان إلى الإِيقونة، ويقرع صدره وهو يهتف بصوتٍ جارحٍ: "ارحمني، يا ربّ".

"وإذ كانت أمّي تحبّ زوجها، فهي لم تلمه، ولكنّ دهشتها كانت لا تني تتعاظم. وهي، أَيضًا، باتت مشدودة الأنظار إلى الإِيقونة المتألّقة. فخلافًا لما كان متوقّعًا، كانت الألوان محتفظةً برونقها، بل بدا وكأنّ يدًا قد أَزالت آثار الدخان التي كانت قد تراكمت فوقها خلال القرون.

"وقد حدّثنا والدي أَنّ الذهول قد دام طويلاً، ولكنّه لم يكن يستطيع تحديد مدّته بالضبط. وأَضاف: "لقد نهضت إِنسانًا جديدًا. لقد قلبني الربّ، وكلّ ما كانت تنطوي عليه نفسي قد تطاير هباءً. وفي هذا الفراغ المحدَث، اندفع الربّ.

"وفي ذلك اليوم عينه، عادت الإِيقونة فاحتلّت مكانها في زاوية البيت الجميلة، وبعد أَيّامٍ ثلاثة، أعَاد أبي بطاقة الحزب، وأعلن إِيمانه على الملأ. لو حدث ذلك اليوم لكانوا أودعوه مصحّة أمراضٍ عقليّة، ولكن، آنذاك، في عهد الإِرهاب، حُكم عليه بالأشغال الشاقّة. وقد ولدتُ، أَنا، بعد رحيله. وأمّي هي التي حدّثتني عن كلّ ذلك. وربّما

حقّ لها أن تحنق على الإيقونة، فبسببها قد حلّت كلّ تلك الكوارث، ولكن لم يكن ذاك موقفها، فهي، أيضًا، قد تحوّلت، ولئن كان انقلابها أقلّ مباغتةً من انقلاب أبي. وبعد رحيل والدي تولّى الربّ حمايتنا؛ أمّا الإيقونة، بعد أن خرجت من مخبأها، فقد آبت إلى سالف عهدها، وما عادت تعكس أيّ نورٍ، بل انحصر النور في داخلها.

من المعتقل، بعث والدي بعدّة رسائل مقتصرةٍ على أسطرٍ قليلةٍ، إذ كانت الرسائل خاضعةً للرقابة؛ وكان يكتفي بالتأكيد أنّه يتمتّع بصحّةٍ جيّدةٍ، وأنّنا لا نبارح فكره؛ ولكن، ذات يومٍ، جاءنا سجينٌ أُطلق سراحه، برسالةٍ كان قد أخفاها بعنايةٍ في حاشية ثوبه، ما زلتُ محتفظًا بها. هل تريد أن أتلوها عليك؟

فأشرت برأسي: "نعم"، إذ كان حلقي منقبضًا، بحيث لا أستطيع التلفّظ بكلمةٍ.

"وتناول "أندريه" من الرفّ كتابًا، وأخرج من خلف غلافه ورقةً مصفرّةً مطويّةً أربع طيّاتٍ. هل تصدّقون! لقد انحفرت كلمات تلك الرسالة في ذاكرتي بحيث يسعني أن أردّدها بأمانةٍ، بل بالحرف الواحد؛ فبعد التحيَّات المألوفة في روسيَّا، كتب والد "أندروشا": "قد يدهشكم ذلك، ولكنّني سعيدٌ، فمنذ استولى عليّ الربّ، أصبحت دائم السعادة، حتّى في السجن، حتّى هنا. إذ إنّ الربّ يرافقني دائمًا. غيابه هو الجحيم، وحضوره هو الفردوس. وأنا، من ثمّ، أعيش في فردوسٍ. لقد

علّمني قيمة الصليب. لا بدّ من هوّة آلامٍ لإنقاذ روسيًّا من هوّتها. يا "أنيوشكا"، أفهمي ذلك جيّدًا لابننا الذي أحبّه من بعيدٍ، وأباركه".

"قد يرى البعض في هذه الأقوال عبارات تقويةٍ. ولكنّها عباراتٌ موقّعةٌ بالدم. لم أعد أذكر هل عقبت تلك الرسالة السرّيّة التي تلاها عليّ "أندروشا" رسائل أُخرى. ولكنّ المؤكّد أنّهم قد تلقّوا، ذات يومٍ، إشعارًا ينبئ بوفاة "ألكسندر نيكيثوروفيتش".

"بعد سماعي الرسالة، سدّدتْ إليّ أنّا – ذلك كان اسم الوالدة السقيمة – نظرةً متوسّلةً وقالت:

– هل تدرك الآن؟

"ولكنّني قاطعتها سائلاً: "وما الذي حلّ بعد ذلك؟" وكأنّني طفلٌ مشدودٌ إلى معرفة نهاية حكاية جنٍّ. كنت أحسّ نفسي منغمسًا في عالمٍ مغرقٍ في اللاواقعيّة؛ لا، ليست هذه هي العبارة الصحيحة، بل إنّني ميّالٌ إلى القول، اليوم، إنّه عالمٌ من الواقعيّة، بحيث إنّ كلّ ما سواه يبدو ظلالاً في مغارة أفلاطون، ولا شيء سوى الظلال. لم أعهد قطّ مثل هذا التأثير الأخّاذ.

"وردّ أندريه على سؤالي بقوله: "بعد ذلك هجرنا المنزل، وحلّت الحرب، فعملت والدتي في كولخوز (مزرعةٍ تعاونيّةٍ) حيث عهد إليها بأعمال الرجال، ففقدت صحّتها. وكان الرجال، آنذاك، في جبهات الحرب، وقد أمر ستالين باحترام المعتقدات الدينيّة، كي يسند

شجاعتهم، وبالتالي، كانت أمّي تتكلّم بحريّةٍ عن السيّد المسيح وعن أمّه القدّوسة. وفي المساء كانت تتلو الإنجيل على مسامع النساء اللائي كنَّ يأتين إليها، ثمّ كنّ يصلّين معًا، أمام إيقونتنا. وكان ثَمَّةَ أولادٌ صغارٌ يأتون وينصتون، وتعمّدهم أمّي، إذ كانت المنطقة خاويةً من الكهنة. وهكذا ترعرعت في أحضان السعادة، وكلّ شيء فيّ كان ينشد ويغنّي. ألم تلحظ أنّ النفس تشدو الألحان، عندما يكون الإنسان عائشًا في سلامٍ مع الربّ؟!

"ولكن، في أعقاب الحرب، غيّر ستالين نهجه، وبدأ المؤمنون يتعرّضون للاضطهاد، وقد وُشيَ بنا، وباغت رجال الأمن مرّتين النساء اللائي كنّ يأتين للصلاة عندنا. وذات يومٍ جاؤوا وفتّشوا المنزل، وصادروا الكتاب المقدّس وكراريس الصلوات، ولو لم تتدارك أمّي الإيقونة وتخبّئها، لكانوا انتزعوها منّا. ويوم اعتقلت أمّي، أوصتني: "يا أندروشا، احفظ الإيمان، يحفظك الربّ". ولم أكن، آنذاك، قد تجاوزت الحادية عشرة. وفي مساء ذلك اليوم عينه، أخذتني جارتنا "إيرينا بتروڤنا" إلى منزلها وقالت لي: "إنَّ إيقونتكم عندي مخبّأةٌ (كان زوجها ملحدًا). عندما، ستكبر سأعيدها لك"، وهذا ما قد نفّذته بكلّ أمانةٍ واستقامةٍ.

"لو كان عليّ أن أعترف، لأقررت بأنّني كثيرًا ما خنت الربّ المصلوب، بارتكابي خطايا جسيمةً؛ ليته يرحمني مثلما رحم اللصّ

التائب. فقد نشأت برفقة أترابٍ كانوا يُجدّفون ويكذبون ويسرقون؛ وعندما عادت أمّي من المعتقل، بعد أن قضت مدّة حكمها، طفقت تنتحب عندما رأت ما انتهيت إليه. وحينئذٍ استعدنا الإيقونة. ثمّ وجدت أمّي عملاً تحت رقابةٍ صارمةٍ. ولكن لكي يبعدوني عنها أرسلوني إلى موسكو حيث كان محظورًا عليها الإقامة. وفي موسكو أنهيت دروسي في المعهد، وفي غضون ذلك، كنت أزور أمّي كلّما سنحت لي فرصةٌ. وذات يومٍ، جاءت هي، خلسةً، لتزورني، وها هي ذي قد اعتلّت صحّتها، ولا يسعنا استدعاء طبيبٍ. وقبل فترةٍ ارتفعت حرارتها، وأخذت تهذي، ومع ذلك، كنت مضطرًّا إلى تركها وحيدةً، طوال النهار، أثناء عملي، ولحسن الحظّ أنّني كنت أتركها في حماية الإيقونة.

– وتريد بيعها، الآن؟

"لم أستطع إمساك نفسي عن طرح هذا السؤال، الذي انطلق منّي مثل صرخة استنكارٍ؛ إلاّ أنّني سرعان ما ندمت عليه ندمًا مريرًا.

وقالت الأمّ أيضًا في نبرة لومٍ:

– أترى، يا أندروشا؟

وأطرق الشابّ، هنيهةً، ثمّ حدّق فيّ وقال:

– لو كنت مكاني، ما عساك كنت تفعل، يا سيّد؟ لقد وعدوني بتسوية وضع أمّي، لقاء ألف روبل، فمن أين آتي بها؟ إنّنا لا نملك سوى

هذه الإيقونة. وفي كلّ لحظةٍ قد يداهمنا رجال الأمن، ويحتجزون أمّي، ويصادرون كلّ ما لدينا، بدءًا بالإيقونة. الأفضل إذن أن نبيعها. إن أنت قبلت بالسعر... سيفهمني الله! فأنا لا أستطيع التخلّي عن أمّي.

ورحت أنبش ما في جيوبي بانفعالٍ. كان لديّ أكثر من ثلاثة آلاف روبل، إذ كنت، قبل قليلٍ، قد صرفت عملةً، متوقّعًا العثور على آثارٍ قديمةٍ وأفرغت جيوبي، ونثرت على المنضدة كلّ ما كنت أحمل من نقودٍ. كنت قد حزمت أمري، في أعقاب أعنف صراعٍ في حياتي، وقلت: "هذا هو المال".

"كانت الأمّ وابنها يحدّقان بي، وهما لا يدركان شيئًا ممّا كنت أفعل. وأضفت: "ها هنا أكثر من ألف روبل".

"كنت قد نهضت، وأدرت للإيقونة ظهري، كي أستطع مقاومة سحرها، وكان لا بدّ من فراري في الحال، فاندفعت نحو الباب كاللصّ. وصاح أندروشا: "لقد نسيتَ الإيقونة. فقد باتت ملكك".

"فالتفتّ، وقد شحبت من الغضب، وصحت: "في المرّة الوحيدة التي عزمت فيها على عمل الخير، يحاول هذا الوغد ثنيي عنه. إنّ الإيقونة لكم، وليست لي".

"وانحدرت أقفز فوق أدراج السلّم، وعندما انتهيت إلى الشارع، فركت عينيّ، أفي حلمٍ كنت أم في واقعٍ؟ حينئذٍ أدركت أنّني كنت

تحت تأثير "النظر الداخلي"، فبعيني روحي كنت أرى إيقونتي، ومـــذ ذاك ما برحت أراها. والآن بوسعكم اعتباري فاقد اللبّ".

وساد، لحظةً، صمتٌ لم يجرؤ أَحدٌ على قطعه؛ ثمّ نهض صـــديقنا الأورثوذكسيّ، ودار حول المنضدة، وتوقّف برهةً، وهو يحاول الكلام، ثمّ، في شيءٍ من الارتباك، فتح ذراعيه وقال: "لقد جعلك الربّ تدرك كنه الإيقونة. إنّها لم تعد أَمامك بل في داخلك، الصورة التي لا تتلف، المسيح الربّ، صورة الآب، الكلمة المتجسّد".

وتردّد "جان كلود" هنيهةً، ثمّ تمتم:

– كلّ ذلك، ليس من اليسير إدراكه.

– ليست القضيّه قضيّة إدراكٍ، يا أَخي، إنّها قضيّة حبٍّ...

وتأمّلناهما يقبّل أَحدهما الآخر، وقد أَخرسهما التأثّر. في الواقع لم يكن أَحدٌ يجرؤ على قطع الصمت الرنّان الذي كان يلفّنا.

وتطلّع ميشيل إلى ساعته وقال:

– عليّ أَن أمضي.

– وأنا أَيضًا، أَضاف أَندريه.

– وأَنا...

– وأَنا...

وعندما صرنا في الشارع أمسك "جان كلود" بكمّ ثوبي، وقال في مزيجٍ من الخجل والدهشة:

- أترين؟ في مثل هذه الحالات، يعجز المرء عن الكلام...

ولم تلبث الحياة أن بدّدتنا... غير أنّني أسرد ذكرى ذلك اللقـــاء، الذي مضت عليه عشر سنين، مثلما دوّنته، في تلك الليلة، بعنايةٍ.

تحيّةً لكم يا "جـــان كلـــود"، وميـــشيل، وأندريـــه، وإيغـــور ميكانيلوڤـــيتش، وفيليب، وإيرين...

حيثما كنتم، هذا هو شعار وحدتنا: إيقونة الكلمـــة المتجـــسّد "صورة الله الغير المنظور".